شخصيات
ثقافية جزائرية



محمد الصالح رمضان

شخصيات
ثقافية جزائرية

دار الحضارة

ص ب 04 (A) بئر التوتة -الجزائر 16045
هاتف/فاكس: 46. 70. 41. (021)
البريد الإلكتروني: kheddoucir@yahoo.com

ردمـك: 0- 61-767-9961-978

تقديم

بين يديك أخي القارئ " شخصيات ثقافية جزائرية " للأستاذ محمد الصالح رمضان، كتاب حافل بسيرة ثلة من ألمع الأسماء التي عرفها تاريخ الجزائر المعاصر في مختلف مجالات الثقافة..

جمعت بينهم الفترة التاريخية التي عاشوها، كما جمعهم عطر القلم وحب الوطن، حد التضحية بالنفس والنفيس في سبيل تحريره.

ولأن المؤلف الأستاذ محمد الصالح رمضان عايش هؤلاء الأعلام عن قرب، ونقل بعض تفاصيل يومياتهم وحياتهم، فقد جاء هذا الكتاب متصفا بأهمية بالغة تظهر في قوة الفكرة ودقة المعلومة وصدق المصدر.

والأستاذ محمد الصالح رمضان - المعروف بنضاله الوطني الطويل، منذ صباه عبر الكشافة الإسلامية الجزائرية شبلا ثم قائدا، ومساره التربوي المدرسي في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومدارسها الحرة التي قاومت سياسة التجهيل ومحاولات مسخ عناصر الشخصية الجزائرية، إذ أن اسمه مطرز من ذهب في ذاكرة هذه المدارس سيما مدرسة الحديث بتلمسان - إذ يقدّم اليوم هذا الكتاب للقراء ثمرة ناضجة تعد أحسن هدية يقدمها الأستاذ محمد الصالح رمضان للقراء وهو على عتبة القرن من العمر - أطاله الله- للتتفع الناشئة التي تهفو للتعرف على تاريخها ورجالاته، التي حملت المشعل في الزمن

الذي هبّت فيه رياح الظلم والاستدمار، هؤلاء الرجال الذين جادوا بعصارة أفكارهم وأفئدتهم أمثال: الأمين العمودي، رضا حوحو، أحمد بوشمال...الخ - رحمهم الله- .

كما يعبّر هذا الكتاب عن ذروة الوفاء لرفاقه في النضال الثقافي والتربوي، بتدوين حياتهم ومآثرهم، وهذا في حد ذاته إحياء للقيم والمبادئ والأهداف التي كانوا يبتغون تحقيقها.

ودار الحضارة اذ تنشر هذا العمل المتميز، فإنها تساهم في إظهار الصورة المشرفة لبعض أعلام الجزائر وأفذاذها ليكونوا قدوة لغيرهم من أبناء الوطن...

فهنيئا للقراء والمكتبة الجزائرية بهذا المؤلف.

الجزائر في : 25 . 11 . 2007

كلمة الناشر

بقلم : رابح خدوسي

الأديب الشهيد
محمد الأمين العمودي
(1957-1890)

الأديب الشهيد محمد الأمين العمودي

- **تعريفه:**

ولد محمد الأمين العمودي حوالي1890 بمدينة "وادي سوف" وبها نشأ وتربى وتعلم مبادئ الإسلام واللغتين العربية والفرنسية.

أخذ الضروري من علوم الدين والقواعد العربية من نحو وصرف على عمّه الشيخ عبد الرحمن العمودي وحفظ ما تيسر من كلام الله في الكُتّاب القرآني.

وتثقف ثقافة فرنسية في المدرسة الابتدائية الفرنسية حتى الشهادة الابتدائية، وواصل دراسته التكميلية في "المدرسة الرسمية بقسنطينة" ابتداء من1905 أو1906، وفي هذه "المدرسة الإسلامية الفرنسية" ثم تكوينه في اللغتين العربية والفرنسية وصار من أبرع المترجمين وفقهاء القانون المدني والإسلامي، فهذا النوع من المدارس يكوّن رجال القضاء والمحاكم الشرعية والإسلامية، ويكوّن المترجمين وأعوان الإدارة والمدرسين، وفيها بدأ يظهر نضجه الأدبي والاجتماعي، فكان يكتب وينتقد أساليب الإدارة في مدرسته وهذا الذي سبب منعه من متابعة دراسته الثانوية في العاصمة.

اشتغل بوظيفة كاتب عدالة في بلدة "فج مزالة"، ثم مساعدا للترجمان الشرعي في بلدة برنيل "وادي الماء"، ثم وكيلا شرعيا في مدينة "بسكرة"، فوكيلا شرعيا ورئيسا لجمعية الوكلاء الشرعيين بالعاصمة ابتداء من سنة 1929.

تفرغ للأعمال الحرة الوطنية، فكان أول أمين عام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من سنة1931 إلى1936، ورئيس تحرير جريدته الفرنسية اللغة"La Défense الدفاع" من1934 إلى1939 حيث توقفت بسبب الحرب العالمية. وكان رئيسا لجمعية "شباب المؤتمر الإسلامي الجزائري".

كانت الصحف الوطنية الجزائرية فيما بين الحربين العالميتين لاتخلو من كتابات العمودي باللغتين، وخاصة "الشهاب" لابن باديس بالعربية و"الإقدام" للأمير خالد بالعربية والفرنسية، و"الإصلاح" الأولى للطيب العقبي، و"صدى الصحراء" كلاهما ببسكرة عربيتين.

استشهد وفي عمره نحو سبعين سنة، فقد سطت عليه عصابة "اليد الحمراء" الدموية المناوئة للأحرار ولحرب التحريرية الجزائرية، ووُجد مرميا حذاء السكة الحديدية في قرية "العجيبة" قرب "البويرة" يوم10 أكتوبر1957.

• الأديب الشهيد الأمين العمودي كما عرفته:

تعرفت على الأديب الشهيد محمد الأمين العمودي في ثلاث مراحل من حياتي، وفي أماكن مختلفة من وطني: في طفولتي بمسقط رأسي "القنطرة"، وفي شبابي بمدينة "قسنطينة"، وأخيرا في كهولتي بعاصمة الوطن "الجزائر".

❖ المرحلة الأولى:

- كنت أسمع بالأمين العمودي في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات وأنا طفل صغير أتردّد على الكُتّاب القرآني وعلى المدرسة الابتدائية الفرنسية بمسقط رأسي ومدرج طفولتي"القنطرة" الواقعة في الجهة الغربية للأوراس في منتصف الطريق الوطني بين مدينتي "باتنة وبسكرة"، كان العمودي محاميا وكيلا شرعيا يرافع في القضايا العدلية بالمحاكم الشرعية لمدينتي باتنة "عاصمة الأوراس" وبسكرة "قاعدة الزيبان". وكثيرا ما ينزل ضيفا بالقنطرة على أصدقائه، أو يتوقف فيها وهو ذاهب أو آيب بين المدينتين المذكورتين.

غير أني لم أر العمودي حينئذ ولكن كنت أسمع به كثيرا عن طريق أقاربي ومعارفي، فقد كان بعضهم يحتاجه في الوكالة، وبعضهم في الاستشارة أوالوساطة، ونحو ذلك من شؤونهم الخاصة لأنه شخصية قانونية مرموقة في تلك النواحي. وقد يكون في جانبهم أو في جانب خصومهم، فأسمع منهم ومن غيرهم مدحا له تارة، وقدحا تارة، حسب منافعهم ومضارهم في أمورهم الخاصة، وتلك طبيعة معروفة في البشر من قديم الزمن: المدح والقدح في الشخصيات الكبيرة، فالمصلحة الخاصة

والمنفعة الخاصة هي الميزان الذي يزنون به الأمور ويصدرون الأحكام بحسبه، وهكذا كان يسمع العمودي أويعرفه كثير من أترابي وممن هم أكبر منّا سنا بالخصوص، فكنا نتصور العمودي شخصية قانونية كبيرة تستطيع أن تنفع أو تضر.

وإلى ذلك الجانب القانوني كان العمودي أديبا لامعا وسياسيا مرموقا، راجت أشعاره وأخباره، وذاعت كتاباته وخطبه ومواقفه في الأمور الأدبية وفي القضايا السياسية والاجتماعية.

فقد كانت"بسكرة" وقتها مصدر إشعاع ثقافي ومهد نهضة أدبية، تنافس بنشاطها مدينتا قسنطينة والجزائر، تعج بالأدباء والمثقفين، تصدر منها صحف أسبوعية بالعربية في ذلك الوقت المبكر مثل: "صدى الصحراء" لأحمد بن العابد العقبي"1925- 1934" و"الإصلاح" في عهدها الأول للشيخ الطيب العقبي"1927- 1948" و"الحق" لعلي بن موسى إصلاحية ثم طرقية عليوية "1926- ...." وصحيفة انتقادية موسمية بالفرنسية للسيد سفير" Le Coup de Bambou"، ومثلها أخرى بالعربية تُدعى "تاغنّانت" لجماعة خير الدين. وكانت بسكرة تضم نخبة صالحة من الأدباء والمثقفين، من الفقهاء والمتعلمين من أبنائها وأبناء الزاب الشرقي والغربي، ومن وادي سوف، ووادي ريغ، ووادي ميزاب المقيمين بها أو الذين يترددون عليها. على رأسهم الشيخ الطيب العقبي، والأمين العمودي، والحكيم سعدان، الذين كانوا واسطة العقد المتألق في جيد عروس الزيبان "بسكرة النخيل" من الشبان والكهول أمثال: محمد العيد آل خليفة، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد الهادي السنوسي، والجنيد أحمد مكي، وأحمد بن العابد العقبي، ومحمد خير الدين، وحمزة

بوكوشة، وعلي بن عمارة، وعمر بن البسكري، والبودالي سفير، ومحمد عبابسة، والعزوزي حوحو، وأحمد بن الدراجي، وعلي الميزابي، ومحمد الطرابلسي، وعمر العنق، وبلقاسم الغسيري، وسعد الدين بلخمار، والبشير العلوي، وإبراهيم العلوي ...الخ.

تزعم الشيخ الطيب العقبي الدعوة الإصلاحية، والأمين العمودي الحركة الأدبية، والدكتور سعدان الأمور السياسية، والتفَّ حول كل واحد منهم جماعة كبيرة من الأنصار والمؤيدين، ومن الأتباع والمريدين.

قد يختلفون في الجزئيات والخصوصيات، ولكنهم يجتمعون في الأمور الهامة والعامة، لذلك كله قلت:

- إن بسكرة كانت تنافس قسنطينة والجزائر.

وبتقدمي في السن شيئا فشيئا، كنت أزداد معرفة بالسيد الأمين العمودي بالخصوص، من غير أن ألقاه أو أراه، وكنت أحفظ من شعره ما يعجبني وكله معجب مطرب، وخاصة الطرائف واللطائف وشعر الفخر والحماسة، وشكوى الزمان والحدثان، والذي مكنني من هذا صهرنا السيد موسى بن حفيظ زوج عمتي وصديق والدي، وهو من معارف العمودي وأصدقائه، وأطلعني على شعر العمودي في الجزء الثاني من "شعراء الجزائر" للهادي السنوسي ويعرف عن العمودي الشيء الكثير.

من الطرائف التي رويتها عنه قول العمودي في ابن صديقه الدكتور سعدان من زوجته الفرنسية، يسميه أبوه"محمد الصالح" وتدعوه أمه "موريس". كانت تبدو على الطفل مخايل الذكاء والنبوغ، فيقول فيه المسلمون: لا يكون هذا الطفل إلا كأبيه وطنيا جزائريا، ويقول فيه الأوربيون:إنه ابن فلانة، وبحكم القانون الفرنسي لا يكون إلا فرنسيا.

وهكذا اختلفت آراء الطائفتين في مستقبل هذا الابن "الشركي" الذي تعاورت عليه تربيتان مختلفتان: تربية أبيه الوطني الصميم، وتربية أمه الفرنسية الاستعمارية. فصوّر العمودي ذلك الجو، وهذا الابن المختلف فيه، في ثلاثة أبيات لطيفة ظريفة قال:

حي الطبيب ولا تنس قرينته ❖ فهو"سليمان" والمادام "بلقيس"

له غلام أطال الله مدته ❖ تنازع العُرْبُ فيه والفرنسيس

لا تَعْذلوه إذا ما خان مِلّته ❖ فنصفه"صالح" والنصف"موريس"

أطلق العمودي هذا الشطر الأخير"نصفه صالح والنصف موريس" مثلا بارعا، جرى مجرى الأمثال في مثل هذه الأحوال، وصار يُطلق في كل ضدين، ومازلت أحفظ للعمودي الكثير من شعره، من ذلك مثلا قوله في الفخر والحماسة:

فضلتني يا رب إذ علّمتني ❖ وكسوتني حُللا بها أزدانُ

فإذا كتبتُ يقال أمطرت السما ❖ أو فُهْتُ قيل تفجّر البركانُ

وإذا نظمتُ أتيتُ قُرّائي بما ❖ لم يأتهم قبلي به حسّانُ

ورسائلي الغرّاءُ ضاع أريجها ❖ لي حجة وقصائدي برهانُ

ويقول:

أمشي على مَهَل وثغري باسم ❖ زَأَرَ الغضنفر أم عوى السرحانُ

بالصبر أدفع جحفل الحدثان عن ❖ نفسي وليس يرو عني الحَدَثانُ

ويجمع بين الشكوى والشهامة فيقول مثلا:

إني وإن حط سوء الحظ منزلتي ❖ وقد علا شرفي بالظلم أقوامُ

في خلقي رجل شهم وفي أدبي ❖ فحلٌ لأثمن دُرِّ الشعر نظّامُ

ويقول مُهددا متوعِّدا خصومه:

قــل للشــاتميــن عــرضــي إنــي ❖ هِــبْــرريٌّ مُــهــنّــد الأنيــاب

وقصارى قولي لــمن لــم يهبــنــي ❖ لا يضر السبــاع نبـح الكـلاب

ومن مبالغاته في وصف بؤسه وشقائه قوله:

نفسي تريد العلا والدهر يعكسها ❖ بالقهر والظلم إنّ الدهــر ظــلاّمُ

إن حلّ عام جديــد قمــتُ أسـألــه ❖ قل لي بماذا أتيــت أيُّـها العــامُ؟

إلى أن يختمها بهذا الوصف الرائع البليغ:

لو اتخذت خليــج البحــر محبــرة ❖ وصيغ لي من يــراع العلــم أقــلامُ

وكان لي الجــوُّ قرطاســا أُمَهّــدِهُ ❖ ضاقت على ذكرماقاسيتُ أعوامُ

وصدق من قال: أطرب الشعر أكذبه أو أبلغه.

ومن أمثلة وصف فقره وسوء حاله قوله:

حالي استحــال وفاقنــي الأقــرانُ ❖ مُذ غاب عنّي الأصــفر الــرّنّــانُ

أخفى بنو غَبْــراء نــور حقيـقـتــي ❖ وأحِبّتي نكثوا العهــود وخانــوا

جار الزّمان عليَّ في شرخ الشـبــابِ ❖ وفــاتنــي مــا يفعــل الشـبّــانُ

ويستمر بعد نفس طويل ثم يقول:

قد كِدتُ أغرق في خِضَمٍّ مصائبي ❖ وأمــوت لولا الصبــر والسُّلــوانُ

ما ساءني إلا انحطاطي في الــورى ❖ والانحــطــاط مــذلــة وهـــوانُ

ثم يختم قصيده بهذه (التصبيرة) الجميلة لنفسه المؤمنة المطمئنة:

داري زمانك يا(أمين) وأهلَــهُ ❖ واصبر على ما قدّر الرّحــمــانُ

فلقد ترى الإنسان دوما ذائقــا ❖ سوط العذاب و يصبِرُ الإنســانُ

واجعل من الإيمان قوتك كُلّه ❖ ما خاب من في قلبه الإيــمـانُ[1]

ومـن هـذه النمـاذج وغيرهـا يبـدو أن العمـودي ينـزع عـن سليقـة عربيـة صميمة، وتربية إسلامية أصيلة، وذوق أدبي رفيع، كما نستشِفُّ نظرته القاتمة للحياة، مع إيمان قوي بالقضاء لا يزعزعه اليأس.

وإتماما لهذه الصورة القاتمة التشاؤمية أُثبتُ له مقطعين نثريين في نفس السياق كتبهما لصديقه الهادي السنوسي الذي طلب منه نماذج من شعره، وترجمة حياته، ليدرجه في سلك كتابه"شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، فكتب له العمودي يقول:"...إني لست شاعرا كما تظن ويظن الذين قرأوا لي شيئا مما نظمتُ في رثاء حالي وبكائي لما حل بي من مصائب ونكبات لما عصفت بي عواصف الحوادث، وصبَّ عليّ الدهر من أنواع البؤس والشقاء ما حرّك لي كلّ ساكن وأنطقني مرغما[2]. ويقول له في ترجمة حياته: (أمّا حياتي فحياة كل مسلم جزائري! حياة بلا غاية ولا أمل! حياة من لا يأسف على أمسه، ولا يغتبط بيومه، ولا يثق في غده... تلك حياتي من يوم عرفت الحياة.وها قد بلغت"37" من عمري ولم أظفر بعقد هدنة مع الدهر الذي أشهر عليّ حربا عوانا لا أدري متى يكون انتهاؤها؟ ولا أظن أن لها انتهاء! لأن هذا العدو القوي الظلوم، الجائر الغشوم، لا يمسك عني إحدى يديه إلا ليصفعني بالأخرى).

بسكرة يوم14جويلية1927[3].

---

1. يوجد في كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) للشاعر الأديب الهادي السنوسي في طليعة الجزء الثاني منه المطبوع سنة 1927 بتونس مجموعة مهمة من شعر العمودي.
2. شعراء الجزائر في العصر الحاضر السالف الذكر الجزء2 صفحة 19.
3. نفس المصدر السابق جزء2 صفحة23و24.

هكذا نرى العمودي رجل القانون والعدالة، ورجل الثقافة المزدوجة شاعرا بائسا، مرهف الإحساس إلى حد التشاؤم، ولكنه يقاوم عوامل اليأس والبؤس بالإيمان والصبر، وبالثبات والتجمل والتحمل، وكأنه في كلامه عن نفسه يصور لنا حياة كل جزائري في ذلك العهد الاستعماري البائد، عهد الفقر والقهر، عهد القوانين العرفية الزجرية(l'Indigénat) وفي التراب العسكري بالخصوص الخاضع للحكم الاستبدادي الجائر، يتحكم فيه ضباط عسكريون مثل ملوك الطوائف لا معقّب لأحكامهم.

❖ المرحلة الثانية:

- وفي أواسط الثلاثينات في عز شبابي، لما انتقلت إلى مدينة قسنطينة لمزاولة الدراسة بها على العلامة الإمام ابن باديس ومساعديه في الجامع الأخضر وفروعه، كان العمودي قد استقر قبل ذلك بسنوات في العاصمة وكيلا شرعيا، ثم عميدا للوكلاء الشرعيين فيها، كما استقر بها الشيخ الطيب العقبي واعظا مرشدا في نادي الترقي بالخصوص، والكاتب الشاعر محمد السعيد الزاهري صحفيا، ومحمد عبابسة الأخضري صحفيا ومذيعا، والشاعر محمد العيد آل خليفة مدرسا ومديرا لمدرسة الشبيبة، ومحمد الهادي السنوسي مدرسا بنفس المدرسة، ثم أحمد سحنون مدرسا وإماما بمسجد سانتوجين.

وماعدا الأخير كان هؤلاء جميعا مع العمودي في بسكرة يشكلون العمود الفقري للنهضة التي ظهرت بها في العشرينات، وها قد طلعوا كواكب وأقمارا في سماء العاصمة، فازدهرت بهم الحياة الثقافية والسياسية ازدهارا وازدادت نورا وإشراقا.

وكـان العمـودي يـتردد علـى قـسنطينة، وفيهـا رأيتـه لأول مـرة، كـان طويـل القامـة نحـيلا بعـض الـشيء قمحـي اللـون يرتـدي اللبـاس الـوطني البرنوس والقندورة والطربـوش، وتكـررت رؤيـتي لـه فيهـا، فكـان لباسـه الدائم هو اللباس الوطني، وجالسته فإذا هو بسيط متواضع لاتكلف فيـه ولا غرور، كان يزور ابن باديس في مكتبه بإدارة الشهاب، أو في مدرسته "التربية والتعليم الإسلامية" كلما حل بقسنطينة. وإدارة الشهاب ومدرسـة التربية متجاوران في نهج واحد تفصل بينهما عمارة واحدة.

إن "جمعيـة العلمـاء المسلمين الجزائـريين" الـتي تأسـست بالعاصـمة مـن نحـو خمـس سـنوات وبالـضبط يـوم05 مـاي1931 برئاسـة الـشيخ ابـن بـاديس ونيابـة الـشيخ الابراهيمـي، وكـان مـن أبـرز أعـضائها غـير هـذين المـشايخ: الطيب العقبي ومبـارك الميلـي والـسعيد الزاهـري والعربـي التبسـي ومحمـد خير الدين... الخ وكـان الأمين العمودي هو أمينها العـام في تلك الـسنوات، لذلك كـان يـزور قـسنطينة وابـن بـاديس في مهمـات الجمعيـة أو في مهمـات وطنية أخرى، وفي مصالحه الخاصة مثل الترويج لجريدتـه "الـدفاع" وجمـع الاشتراكات لها، التي سأتعرض لها فيما بعد:

وفي الفترة التي تقدمت الحرب العالمية الثانية، ما بين أواسط الثلاثينات وأواخرها، لم يبق العمودي مجرد وكيل شـرعي أو مجـرد شـاعر يشكو الزمان وسوء الحال، ويتصارع مع الحدثان، بل أصبح سياسيا يخوض غمار السياسة الوطنية، يهاجم وينتقد السادة الحاكمين والزعماء السياسيين، إلى جانب اهتمامه بشؤون جمعية العلماء الإصلاحية والثقافية.

وصار العمودي ملء السمع والبصر، في نظرنا نحن الطلبة على الأقل، وأصـبح شخـصية وطنيـة بـارزة علـى المـستوى الـوطني، كمـا سـأتعرض

إلى ذلك في نقط معينة من اهتماماته فيمايلي:

أ. جمعية العلماء وخصومها:

كانت الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء قد انتشرت انتشارا واسعا في أطراف الوطن، فكثرت مدارسها التعليمية ونواديها الثقافية، وكان لرجالها نشاط حثيث ملحوظ في مساجدهم وفي مدارسهم ونواديهم، وفي صحفهم وفي رحلاتهم وتنقلاتهم، وفي تجمعاتهم لتدشين المدارس وافتتاح النوادي والمساجد الحرة، حيث يتصلون بالشعب لتوعيته بما يجب عليه، ويمتزجون بطبقاته امتزاجا كليا.

فكثر أتباع الجمعية، وبدأت تضيق بهم الدوائر الحكومية والأوساط الطرقية الخرافية، ويحملون الجمعية تبعات هذا الانقلاب في الرأي العام الجزائري: فشنت الصحف الاستعمارية حملات ضد الجمعية متهمة لها بالتشويش وإثارة الرأي العام، وتكونت هيئة من بعض الطرق الصوفية والزوايا الطرقية سموها "جمعية السنة" بإيعاز وتدعيم من السلطات الحاكمة، وكانت لها صحف مناوئة للجمعية ورجالها مثل الصحف الاستعمارية.

وبلغ الصراع أشده بين المصلحين والطرقيين لما ظهرت صحيفة طرقية عليوية باسم "البلاغ" ثم صحيفة أخرى سفيهة تحمل اسم "المعيار": لون ورقها أخضر كلون الجنة فيما يزعمون وهي لسان حال "جماعة السنة"، لم تجد هذه الجريدة سلاحا تستعمله ضد المصلحين سوى السباب والشتم بأقذع الألفاظ وأحط المعاني، وثلب أعراض ابن باديس وصحبه بطريقة رعوية بذيئة، وكلمات نابية سخيفة، وأسلوب سمج ركيك، فكانت "المعايرة" هي وسيلتها الوحيدة.

فتكونت لها جريدة تردُّ هجماتها، وتكيل لها الصاع صاعين بطريقة مهذبة بالنسبة لها. كان اسم هذه الجريدة "الجحيم" والعياذ بالله، لون ورقها أحمر كلون جهنم، وحروف عنوانها مكتوبة بشكل ثعابين وأفاعي فاغرة أفواهها فوق ألسنة من اللهب، وتحت العنوان كتبت العبارة التالية: "الجحيم جريدة انتقادية تتنفس مرة في الأسبوع، يحررها نخبة من شبان الزبانية، شعارهم العصا لمن عصى" ولا يفوتني هنا أن أنبه إلى أن جريدة "الجحيم" لم تكن تتكلم باسم "جمعية العلماء" كما كانت "المعيار" باسم "جمعية السنة"، إنما كانت باسم من لهم غيرة على جمعية العلماء ورجالها يدافعون عنها وعنهم. ولم يكن ابن باديس وصحبه الكبار راضين عنها ويقولون: "نحن لا نجاريهم في سفههم فلسنا سفهاء حتى نقابل السَّفه بالسَّفه"، ولم يكن لهم علم بهذه الجريدة حتى ظهرت.

كان على رأس هذه الجريدة الأمين العمودي والسعيد الزاهري فرسا الرّهان في هذا الميدان، اللذان أظهرا براعة فائقة في ردع الخصوم بالنقد والتجريح نظما ونثرا، في قوالب أدبية مختلفة من نكت ونوادر، وقصص وروايات فيها الجد والهزل والدعابة والسخرية يمتزج الخيال والواقع حتى لا يكاد يفرق بينهما القارئ.

وهكذا أصلت "الجحيم" خصومها نارا حامية، وكشفتهم ومن وراءهم للرأي العام الجزائري، وأبانت ما في الزوايا من خبايا ورزايا. وأظهرت ما تنطوي عليه نفوس تلك الشخصيات الدينية والإدارية من خبث ومكر وخيانة لشعبهم وبلادهم، فانكشف أمرهم وباؤوا بغضب الشعب ومقته، وتفرق عن أكثرهم أتباعهم ومريدوهم.

هذا الصراع الذي بدأ بين المصلحين والطرقيين ومن والاهم، هو في الحقيقة والواقع صراع بين شعب يريد الحياة، وبين رؤساء حاكمين يسوسون البلاد بقاعدة "فرِّق تسُد" وبطريقة عنصرية تفوقية، وبأحكام عرفية استثنائية، ترخي الزمام للبعض ليقع في حبائلها، وتشدد الوثاق على البعض تعذبه وتنكل به لأدنى شبهة ليكون عبرة لغيره، وبين شيوخ طرق وزوايا يخدرون الشعب بطقوس ورموز ما أنزل الله بها من سلطان ليبقى العوام في خدمتهم سائرين في غوايتهم وضلالهم.

ب. الصحافة:

كان العمودي صحفيا بارعا، مارس الكتابة في الصحف الجزائرية بالعربية والفرنسية في الأمور الأدبية والاجتماعية، وفي السياسة الوطنية في شبابه الباكر أيام كان تلميذا في المدرسة الرسمية العربية والإسلامية بقسنطينة، وذلك هو الذي جر له الطرد ومنعه من متابعة دراسته في الطور الثاني الثانوي بالعاصمة، وله في ذلك قصيدة مشهورة يقول في مطلعها:

في قسنطينة قضيت شبابي ❖ في عناء ومحنة وعذاب
وخطوب تحل بعد خطوب ❖ ومصاب يجيء بعد مصاب
قبَّح الله أهل هذا الزمان ❖ كل من ساد اسْوَدَّ مثل الغراب

إلى أن يقول:

كان للامتحان قبْل دخولي ❖ كدخول الإمام للمحراب
صار لي الامتحان أصعب من ❖ يوم لقاء العدا ويوم الحساب
لا أرى فيه منصفا يُظهر ال ❖ حق جليا أو يهتدي للصواب

...الخ القصيدة في أكثر من عشرين بيتا[1]:

كتب في "النجاح" في عهدها الأول قبل أن تتحول إلى عميلة للاستعمار، وكتب في "الإقدام" للأمير خالد بالعربية والفرنسية، وفي "الإصلاح" و"صدى الصحراء" ببسكرة، وفي "المنتقد" و"الشهاب" لابن باديس بقسنطينة، وفي "البرق" للسعيد الزاهري بقسنطينة، و"الشرق"؟... وفي الجريدة اليومية التقدمية بالفرنسية "Alger Républicain" وفي جريدة "الدفاع" له بالفرنسية "La Défense" وكلاهما بالعاصمة، وكان من إمضاءاته المعروفة: جساس وسمهري وربما ديك الجن وقد يكتب ويترجم بلا اسم ولا توقيع خاصة في جريدتيه "الجحيم" وبالعربية و"الدفاع" بالفرنسية.

ومعلوم أنه أنشأ في العاصمة سنة 1934 جريدة أسبوعية بالفرنسية سماها "La Defense" "الدفاع" هو الذي تولى رئاسة تحريرها وجميع شؤونها، اشتهرت لدى قراء الفرنسية بصدق اللهجة وقوة الحجة في دفاعها عن حقوق المسلمين الجزائريين، وهي الصحيفة الوحيدة التي كانوا يجدون فيها ما يرضي مطامحهم ويلبي رغائبهم، يقرأون فيها ما يجهلون عن عروبتهم وإسلامهم وتاريخ قومهم ومزايا بلادهم، وتدعوهم، للتآلف والتكاتف، في وقت كانت بعض الصحف لمواطنين جزائريين تدعو للتجنيس مثل صحيفة" La Voix Indigène" "الصوت الأهلي" لرابح الزناتي المتجنس، أو تدعو للاندماج مثل مجلة "La Voix Des Humbles" "صوت المستضعفين" للعربي طاهرات الاشتراكي على الطريقة الفرنسية "الحزب الاشتراكي

---

1. نفس المصدر السابق جزء 2 صفحة 23 و24.

الفرنسي"، كان العمودي يرد عليهما وعلى أمثالهما من دعاة الاندماج والتجنس والتفرنس كما يرد على الصحافة الاستعمارية المتطرفة مثل: "L'Echo d'Alger" ومثل:"la Dépêche de Constantine" "ومثل: "Quotidienne La Dépêche"

واليوميات الفرنسية الواسعة الانتشار التي لها طاقات وإمكانات ضخمة، فأبلى في ذلك البلاء الحسن وتعرض للمضايقات والسجن خصوصا عندما ينتقد أو يُعرِّض بالحكومة والولاية العامة ومسؤوليها مثل: ميرانت وميو وغيرهما، حتى انتهى به الأمر إلى الاستشهاد على يد زبانية "اليد الحمراء" المجرمة الدموية.

ج. السياسة:

ندرك مما تقدم أن العمودي كان سياسيا ملتزما بشؤون قومه غير محترف أو منحرف، خاض المعارك السياسية والخصومات الحزبية والطائفية، وخاصة حملاته على الطرقية المنحرفة والتيارات الأجنبية المجحفة المناوئة للاتجاهات الوطنية ومحاربتها لمقومات الشخصية الجزائرية من لغة ودين وقضاء وتعليم.. الخ ولم يرشح نفسه ولا مرة للانتخابات كما يفعل أصحاب السياسة الحزبية الطامحون إلى المناصب الرفيعة والطامعون في المجالس العليا.

شارك في أعمال "المؤتمر الإسلامي الجزائري" من يوم تأسيسه في سنة 1936 ويقال: إنه هو صاحب فكرة هذا التجمع الجزائري الكبير التي تبنّاها ابن باديس ودعا لها في صحفه، كما دعا لها العمودي في جريدته، ونجحت الدعوة، وشاركت طبقات الشعب. وبعد الاجتماعات والمناقشات وتحرير المطالب واختيار المندوبين تعين الوفد الذي يذهب بتلك المطالب

إلى فرنسا، وكان العمودي أحد أعضائه.

ولما عارض بعض الأشخاص تعيين العمودي ضمن الوفد، قال الشيخ ابن باديس: "لا أرضى بغير العمودي ترجمانا لي، فهو الذي يستطيع تبليغ أفكاري وترجمة كلامي إلى المسؤولين الفرنسيين، وينقل إليَّ كلامهم بأمانة وإخلاص، فالأمين العمودي هو لساني "الأمين" الذي لا أبغي به بديلا". وحسبُ العمودي هذه الشهادة وهذه الثقة من الأستاذ الإمام. وسافر الوفد وفيه العمودي ضمن وفد العلماء المتكون من المشايخ: ابن باديس والابراهيمي والعقبي والعمودي إلى جنب وفود المؤتمر الأخرى الممثلة لأحزابها وهيئاتها.

وبعد رفض الحكومة الفرنسية لمطالبهم، وخيانة الرئيس الدكتور ابن جلول أونكوصة عن المؤتمر، وبعد فشل المؤتمر أمام المثبطات والعراقيل، وخاصة بعد اغتيال ابن دالي كحول وسجن العقبي وعباس التركي، وخروج كتلة النواب المسلمين تضامنا مع رئيسهم المخذول ابن جلول، تألفت هيئة أخرى سنة 1937 للمحافظة على أهداف المؤتمر والدفاع على أسسه وقواعده، تدعى "شباب المؤتمر" ترأسها الأمين العمودي وكان الفضيل الورتيلاني نائبا له فيها.

كان للعمودي والورتيلاني بعد ذلك صولات في الصحافة وفي المجتمعات ضد مجموعة النواب المسلمين المتخاذلين بزعامة ابن جلول الذين تخلوا عن المؤتمر تبعا لزعيمهم محافظة على وحدتهم في زعمهم، مثلما كان العمودي والورتيلاني ضد رؤساء الضلال من طرقيين وحكوميين الموالين للنظام الاستعماري أو المتعاطفين معه من جزائريين وأوربيين.

هكذا كان العمودي في الفترة التي تقدمت الحرب العالمية الثانية مِلء السمع والبصر في البلاد الجزائرية كلها يكتب ويخطب باللغتين بسهولة ويُسر نادرين، ويكافح وينافح في الميادين السياسية والاجتماعية بشجاعة وإيمان قوي. وكان له أنصار أقوياء وأعداء ألدّاء شأن كل عظيم، له مكانته وخطره في المجتمع.

❖ المرحلة الثالثة:

ومن قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1939 إلى اندلاع حرب التحرير الجزائرية، وخصوصا بعد انتقالي إلى عمالة وهران في كهولتي للعمل في مدارس جمعية العلماء من سنة1943 إلى سنة1953 واستقراري في تلمسان على الأخص - وهي في أقصى الغرب من بلادنا - حيث كنت أسمع عن القطر الشقيق "المغرب" أكثر مما أسمع عن بلدي الحبيب الجزائر، لأن صلة التلمسانيين بالمغرب كانت وثيقة جدا في عهد المرحوم الملك محمد الخامس، وترددهم على مدنه: وجدة وفاس والرباط مثل ترددهم على وهران وسيدي بلعباس مثلا، أما علاقتهم وترددهم على مدن الجزائر الشرقية والوسطى مثل قسنطينة والجزائر فلا تكاد تذكر لقلتها مع العاصمة وندرتها مع قسنطينة.

هذه الفترة التي تقدر بعشر سنوات، انقطعت عني فيها أخبار العمودي التي كانت تشغل الرأي العام الجزائري، فلم أعد أقرأ له شيئا، ولا أكاد أعثر له على ذكر أو أثر، أو يصلني عنه خبر. قد يكون السبب الرئيسي في ذلك هو الحرب العالمية التي شغلت الدنيا كلها، وأذهلت الناس عن أنفسهم وذويهم. ولعل ويلات هذه الحرب أصابت العمودي في نفسه أو في عمله أو ماله، فنالت من نشاطه كما نال منه تقدم السن وهموم الزمن،

فآثر العزلة والانقطاع لأهله وشؤونه الخاصة وعمله، وقد يكون السبب هو ابتعادي أنا عن مراكز النهضة في العاصمة وقسنطينة.

والشيء الثابت عندي أن العمودي لم يعد يكتب أويخطب أو يتجول في هذه الفترة كما كان قبلها نشيطا دائم الحركة والتنقل، لماذا؟ لا أدري، قد يكون سُجن أو اعتُقل أو عُذب، وقد يكون حُجر عليه ذلك. كل هذا ممكن في زمن الحرب، وفي ثورة التحرير بالخصوص مع الحكم استعماري طاغي.

وفي السنوات الأولى لحرب التحرير الجزائرية "55- 56- 57- 58" أقمت في حي من أحياء العاصمة "القبة" لا أدخل العاصمة إلا لماما. كنت ألقى العمودي في مكتبة لأحد أقاربي قرب قصر بروس وجامع كتشاوة"مكتبة الجيل" القريبة من مقر عمله في المحكمة المالكية، يجلس فيها من حين إلى حين، فأجده كما كنت أعرفه بلباسه الوطني ونظارته البيضاء وطربوشه الأحمر وقد اجتاز عقبة العقد السابع ببضع سنوات، يبدو عليه الإعياء والوهن الذاتي، ولكنه واع ذكور للأمور القديمة التي مرت عليه.

وإذا سألناه عن خصومه السياسيين بالأمس ومعاركه معهم يقول: "خوضوا في غير هذا بارك فيكم، فقد طلّقت السياسة والسياسيين "يقصد سياسة الأحزاب والمتحزبين" فلم يعد يعنيني من أمرها وأمرهم شيء".

وهكذا كان الرجل شهما عظيما في حربه وفي سلمه، ناضل وحارب بشرف، ووضع السلاح بشرف لا يريد أن ينال من خصومه بكلمة سوء، أو يسمع من يتكلم فيهم بما يشينهم في غيابهم.

إلى أن فوجئنا يوم10 أكتوبر1957 باغتياله من طرف"اليد الحمراء" العصابة المجرمة، التي كانت تتعقب المثقفين بالخصوص، وترى فيهم أنهم هم وقود الثورة.

• استشهاده:

وهذه صورة استشهاده كما يرويها أحد أصدقائه الشيخ حمزة بوكوشة:

"في آخر أيامه توالت عليه العلل واعترته حركة الارتعاش، وكاد يصاب بالشلل، وهو في حاجة إلى الراحة والاطمئنان، ولكن قلة المال وتكاليف العيال قضت عليه بالخروج من منزله بحي "سانتوجان" إلى المحكمة الشرعية بالجزائر في أيام عصيبة كانت "اليد الحمراء" تتخطف من تجده من المسلمين الجزائريين، وتهوي به في مكان سحيق، فلم تهمله هو الآخر على كبر سنه والأمراض التي كانت تتعاوره، فخطفته وسطت عليه، ووُجد طريحا قرب سكة الحديد في"البويرة" في أكتوبر1957، ودفن بمقبرة حي"سانتوجان" تغمده الله برحمته التي وسعت كل شيء[1].

أما أبناء الشهيد فيروون القصة بشيء من التفصيل كالآتي:

((تكلم الأخ أحمد العمودي الابن البكر عن استشهاد والده في ندوة"المقار" بالعاصمة مساء يوم29 نوفمبر1977 بعد أن حدّد أخوه كمال بأنهم عثروا عليه قرب سكة الحديد عند قرية العجيبة القريبة من"البويرة"

1. ختام مقال قيم لحمزة بوكوشة عن العمودي في مجلة الثقافة عدد6 شهر جانفي سنة1972.

في العاشر من أكتوبر1957 ليوهموا الناس أنه انتحر بإلقاء نفسه من القطار: إن ذلك اليوم كان صبيحة خميس وأن والدهم كان متجها إلى عمله في محكمة الجزائر"ولم يعد للمنزل بعدها"، وأنهم أخبروا من الغد بواسطة الجندرمة، والسبب في ذلك أن شيخ بلدية البويرة كان من الفرنسيين الرافضين للحرب ضد الشعب الجزائري، وكان يعرف النشاط الصحفي للشيخ العمودي.

فبينما كان مقررا أن يُلقي العمودي ضمن مجموعة الأبرياء الذين اغتالتهم الأيدي الآثمة من المعمرين على الطريقة البشعة المتمثلة في حفر حفرة كبيرة تُلقى فيها جميع الجثث ويهال عليها التراب.

فلما عرف شيخ البلدية المذكور بأن الأمين العمودي من بين من يشملهم حفير ذلك اليوم، رفض التصريح للجندرمة بالدفن الجماعي، وأمرهم بالاتصال بأسرة العمودي.

وهكذا عرفنا الحقيقة وهي أن عصابة "اليد الحمراء" التي اختطفته لم تقض عليه تماما عند تقاطع طريق السيارات مع طريق السكة الحديدية قرب قرية"العجيبة"، ولكنهم رموه هناك بعد أن ضربوه ضربة قاتلة على قفاه، ونقل إلى المستشفى في البويرة، ولم تنفعه الإسعافات فتوفي رحمه الله.

وبذلك تبيّن كذب الخبر الذي أذاعته السلطات الاستعمارية من أنه رمى بنفسه من القطار"أي أنه انتحار وليس اغتيالا"[1])).

---

1. انظر كتيب (الأمين العمودي) للسائحي بن عبد القادر ص 23.

- **مـن آثاره:**

جريـدة "الـدفاع" الأسـبوعية بالفرنـسية مـن1934 إلى1939. وأهـم مقالاتـه النقديـة بالعربيـة كانـت في جريـدة"الجحـيم" الـتي أنـشأها هــو والـسعيد الزاهري وعبابسة الأخضري. وتوجد طائفـة مهمـة مـن أشـعاره العربيـة في طليعة الجزء الثاني من كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" للهادي السنوسي المطبوع سنة 1927 بمطبعة النهضة بتونس.

• خاتمة:

للعمودي نكت بارعة وأجوبة مسكتة مبكتة، اشتهر بها بين معارفه، وله نوادر وبدائع ولطائف وطرائف، لا تُروى إلا في المجالس الخاصة، يعرفها أصدقاؤه، ويتناقلها أحباؤه والمولعون بهذا الفن من القول.

وكان الإبراهيمي شيخ الأدباء والفيلسوف الحكيم مُعجبا بنوادر العمودي، مما يدل على قيمتها الأدبية وبراعتها البلاغية، ومثله في هذا نادر عندنا. ثم إن العمودي مرح خفيف الروح، حلو الحديث، صعب المراس، شرس الطباع مع خصومه وأعدائه، وإذا كان الأمر يتعلق بمبدأ من مبادئنا الوطنية المقدسة، وهو نبيه سريع البديهة، ذكي دقيق الملاحظة، خبير بالسياسة الفرنسية، ضليع بقوانينها وأحكامها يعرف خبث المستعمرين، ودجل الدجالين، بارع في الترجمة بالعربية والفرنسية، يستويان عنده في النقل منهما أوإليهما، ناقد بصير بعيوب المجتمع، ساخر أحيانا، وساخط أحيانا أخرى. وقد كان رحمه الله صادقا صريحا فيما يرى ويؤمن به من الآراء، شجاعا في إبداء رأيه، لا يبالي لومة لائم، ولاسطوة ظالم[1]

1. مجلة الثقافة الجزائرية السنة 8 عدد 43 لشهري فيفري ومارس 1978 من صفحة 11 إلى صفحة 22 مع إضافات خفيفة زيدت عليه.

• ملحقـات:

❖ من آراء بعض معارفه فيه:

- الجنيدي أحمد مكـي:

((لـو أن شـوقي أو حـافظ أو الرصـافي أو الزهـاوي نـشأوا في وطننـا وتعاطوا التعليم في مدارسنا لما كـانوا أشعر من أحمد كاتب الغزالـي أو الأمين العمودي، ولو أن هذين أُنشئا في قارتي أولئك لما كانا أحط منهم شعرا ، ومن عرف الغزالي والعمودي عرف أعظم شـاعرين فقدهما النبـوغ الأدبي وما الذنب ذنبهم))[1].

- **حمزة بوكوشة:**

((كان العمودي شاعرا من شعراء الجزائر وأديبا من أدبائها ، وكـاتبـا مـن كتابهـا بالعربيـة والفرنـسية ، وكانـت صـحف الجزائـر فيمـا بـين الحربين العالميتين لا تخلو من كتاباته ، فقد كـان مـن أصحاب الأقـلام البارزة التي لها في عالم السياسة الجزائرية حظ من النظر والاعتبار...

كـان أحـد الأدبـاء الثلاثـة الحـاملين لرايـة الأدب والـشعر بالـشرق الجزائري مع بلقاسم محمد خمار ، والجنيـدي أحمـد مكـي. وقد كانت بينهم مساجلات ومطارحـات أدبيـة ، وكانت بسكرة موطن اجتماعهم. جمـع بيـنهم الأدب حقبـة مـن الـزمن وفرقـت بيـنهم الـسياسة إلى الأبـد ،

---

1. كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر جزء1 ص 92، المطبعة التونسية -تونس- 1926.

فكان العمودي بينهم أحد ضحايا السياسة الجزائرية ومن شهدائها))[1].

- أحمد بن ذياب:

((من بين الشخصيات الفذة والمناضلين الأوائل فيما ينيف عن ربع قرن ذلك الشاعر الساخر، والمصلح الاجتماعي الطموح، والسياسي الجريء محمد الأمين العمودي، أحد مؤسسي جمعية العلماء الجهابذة، وصاحب جريدة"الدفاع" والخطيب البليغ باللسانين، والكاتب المبدع بالقلمين، الذي عاش أكثر شبابه متمردا ثائرا، وجل كهولته مناضلا جريئا، لا يخاف في قولة الحق لومة لائم))[2].

- جلول البدوي:

((الأمين العمودي رحمه الله رجل نادر المثال في خفة روحه وفصاحة تعبيره، وجرأته على القول متى أراد، بارع النكتة، حاضر البديهة، عصبي المزاج يكاد يتفجر حدة على من يحاول معاكسته فيما يبدو له من الرأي))[3].

---

1. مجلة الثقافة الجزائرية السنة الأولى العدد6 شهر جانفي1972 ص 52و53.
2. مجلة الثقافة الجزائرية السنة 15 عدد 86ص 223.
3. مما أدلى به الأستاذ البدوي في ندوة المقار في نوفمبر 1977.

• حقائق أخرى:

كان الأستاذ السائحي بن عبد القادر يشرف على أمسيات ثقافية بقاعة المقار في العاصمة أسبوعيا عدة سنوات، وفي نوفمبر1977 خصص للشهيد الأمين العمودي بمناسبة الذكرى العشرين لاستشهاده أربع ندوات متتالية، شارك فيها نخبة من الأساتذة المحاضرين ممن يعرفون العمودي، وجمع منهم ومن غيرهم شهادات ومعلومات قيمة عن حياة ومكانة العمودي، ثم طبع خلاصة ذلك في كتيب بعنوان: "العمودي الشخصية المتعددة الجوانب" جمع بعض الحقائق التي كانت مجهولة للناس نورد بعضها منها هنا:

- **المخابرات وراء استشهاد العمودي:**

أفاد ابن الشهيد مراد العمودي أن ما يعرف بـ"اليد الحمراء" أي المصالح السرية الفرنسية نفسها تتحمل المسؤولية كاملة في القضاء على كل من: الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد، والزعيم المغربي المهدي بن بركة، والمصلح الكبير الجزائري الشيخ العربي التبسي، والمناضل السياسي الأمين العمودي، وقد كشفت قضية تدمير الباخرة "قريفيس" بأن أصابع المخابرات الفرنسية فعلا حمراء قانية!.

تعتبر سنة1985 سنة مهمة في الاعتناء بالأمين العمودي على مستوى الوطن: فقد ألقيت عنه محاضرات في كل من متوسطة الأمين العمودي بالحراش يوم13 أكتوبر1985 وفي الملتقى الثاني للأدب والثورة بسكيكدة يومي23 و24 أكتوبر1985 وفي قاعة المحاضرات لبلدية القبة تحت إشراف قسمة المجاهدين بها يوم31أكتوبر1985ونشرت أجزاء

من تلك الكلمات والمحاضرات في الصحف الجزائرية وخاصة جريدة الشعب.

بعض أشعار العمودي دخلت في الكتب المدرسية كما نجد ذلك في كتاب النصوص الأدبية"أربعة أجزاء" للأستاذين محمد الصلح رمضان وتوفيق شاهين مع تعريف موجز به.

ونجد إشارات إلى العمودي في أماكن متعددة من كتاب الدكتور صالح خرفي "الشعر الجزائري" الذي نال به الدكتوراه من جامعة القاهرة في دراسة الشعر الجزائري.

كما نجد في كتاب الدكتور محمد ناصر"المقالة الصحفية الجزائرية" نشأتها وتطورها وأعلامها الذي نال به هو الآخر الدكتوراه من جامعة الجزائر، فقد تعرض فيه للعمودي مرات كثيرة.

كتاب "نماذج من الشعر الجزائري المعاصر" للسائحي بن عبد القادر وفيه نماذج من شعر العمودي وترجمة لحياته.

وأخيرا كتاب "الأمين العمودي الشخصية المتعددة الجوانب" للسائحي أيضا فيه تعريف وافي بالعمودي وتعدد مواهبه ونماذج من نظمه ونثره وآراء مختلف المثقفين فيه.

- **إضافة:**

- هناك طالبتان في معهد اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر جعلت كل منهما بحثها في المنهجية حول شعر الأمين العمودي، بادرة كريمة نرجو لها التوفيق والنجاح.

الأديب الشاعر
الطيب العقبي
(1960-1890)

الطيب العقبي

• العقبي ومكانته في الإصلاح:

عرف عامة الناس وخاصتهم في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن أن الشيخ الطيب العقبي عالم كبير وصحافي قدير، عاد إلى الجزائر من الحجاز بعد الحرب العالمية الأولى، وأنه خطيب جماهيري خطير، وداعية إسلامي خبير، وعرفوا أنه صادق اللهجة قوي الحجة. تشبع بالعلوم الاسلامية السلفية، ولذلك فهو لا يقبل التعاليم الطرقية الخرافية البدعية، ويرى فيها خروجا عن الاسلام الحنيف، فكان الطرقيون يعتبرونه وهابيا عدوًا لهم، وهم لا يعرفون عن "الوهابية" سوى مضادتها للطرقية، ويعتبرون هذا المذهب "الحنبلي السني" مذهبا بدعيا خارجا عن أهل السنة والجماعة. بينما الطرقيون المنحرفون هم البدعيون الجاهلون بمذاهب أهل السنة والجماعة.

وعرفنا عنه - نحن أبناء جمعية العلماء وشبانها- أنه من مؤسسي هذه الجمعية ومن أقطابها الكبار، وأنه رأسَ تحرير صُحُفها: "السنة والشريعة والصراط والبصائر" في عهدها الأول بالعاصمة، قبل أن تنتقل إلى قسنطينة ويتولاها الشيخ مبارك الميلي في أواخر الثلاثينات، وعلمنا أنه كان في "بسكرة"- قبل تأسيس جمعية العلماء- وفيها أصدر جريدة "الإصلاح" التي كانت أشد على البدعيين والخرافيين من الصحف الإصلاحية الأخرى، وفي ذلك يقول الابراهيمي في معرض تاريخه لنشوء

الحركة الإصلاحية قبل جمعية العلماء: كان اسمها "أي جريدة الإصلاح" أخف وقعا، وإن كانت مقالاتها أسد مرمى وأشد لذعا.

ومقالاته فيها- كما في المنتقد والشهاب- وفي صحف الجمعية من بعد- كانت أشد على الطرقيين من مقالات معظم الكتاب الآخرين. فالطرقيون البدعيون يرون فيه أخطر عدوّ لهم ظهر في البلاد، فهو الذي أعلن الحرب العَوَان عليهم في العشرينيات قبل ظهور جمعية العلماء وسلسلة مقالاته في جريدة الشهاب وخصوصا: "يقولون وأقول" مثلا تصور مدى خطورته على المبتدعة والأفاكين عليه وعلى أمثاله من رجال الإصلاح.

هكذا عرفناه وعرفه القراء إذ ذاك أعلى صوت إصلاحي، وأجهر صوت بالدعوة إلى الله لا يخشى في الله لومة لائم، ولذلك اختارته الجمعية ممثلا لها في "عاصمة البلاد" مرابطا في مركز الجمعية "بنادي الترقي"، مشرفا على الحركة في ولاية الجزائر، كما اختارت الابراهيمي ممثلا لها في تلمسان عاصمة بني زيان الثقافية والسياسية، مشرفا على الحركة الإصلاحية في عمالة وهران، أما ابن باديس فكان من قبل مرابطا في قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري، ومهد النهضة الشاملة، والحركات التقدمية، وبقي كذلك بها مشرفا على عمالتها، فهؤلاء الثلاثة هم أقطاب الجمعية وأركانها إذ ذاك.

هذا هو العقبي عموما كما عرفه الخاص والعام، ولكن الذي لايعرفه الكثير من الناس عنه حتى المثقفين اليوم، هو الجانب الأدبي والشعري منه بالخصوص. وهو ما أردت لفت الأنظار إليه في هذه الكلمة أوالعجالة، وأرجو أن أوفق في التعريف بالعقبي الشاعر الأديب وهو الداعية

الخطيب، بعيدا عن السياسة والسياسيين، وعن الحساسيات والمذهبيات، والصراعات بين المصلحين والطرقيين. أو بين المصلحين والوطنيين، وأرجو أن أوفق في التعريف بالعقبي الشاعر الأديب، لا العقبي الداعية الخطيب.

وقد كلمني بعض القراء مندهشين متعجبين من نسبة الشعر إلى العقبي. لذلك عدت إلى العقبي لأؤكد لهم تضلعه في الشعر وأذكرهم أن شاعرنا الكبير محمد العيد من ألمع تلاميذه فقد لا زمه وتخرج على يديه في أوائل العشرينات ببسكرة عاصمة الزيبان.

• العقبي الشاعر:

تذوق الشعر منذ الصبا في المدينة المنورة حيث نشأ وتعلم، فقد بدأ يحاول نظم الشعر وهو طفل لم يبلغ الحلم، وقبل أن يعرف قواعد الشعر وأحكامه، فكان يخلط الغث بالسمين والصحيح بالسقيم، حتى جمع منه ما سماه ديوانا، كما ذكر ذلك في ترجمة حياته لكتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" قال: ((ولكن بعد أخذي بحظ من العلم وتذوقي للعربية الفصحى حكمت على شعري ذلك بالإعدام للمرة الأولى، ثم جمعت ما يكاد يقرب من ذلك الديوان للمرة الثانية وأنا بالمدينة المنورة، فطوّحت بي طوائح الحرب العالمية الأولى، بالإبعاد عن تلك البلاد، بغتة ودون الاستعداد لذلك البين والبعاد، فحالت بيني وبين كتبي، وكل نظم ونثر لي تركته بالمدينة..فذهب ذلك الديوان أيضا"وهو الديوان الثاني له، ثم يقول العقبي:(وأصبح الشعر بعد أن تدرجتُ في مدارج الرقي..أمرا لايهمني كثيرا، وطالما صرفتني عنه الصوارف، ولكني على كل حال أستطيع أن أقول الشعر اليوم غير أني تارة أجيد الرماية، وأصيب الغرض، فلا أكاد أخطئ، وتارة يستعصي عليّ، ولا تكاد تجود القريحة إلاّ بما لا يسمن ولا يُغني من جوع، لفقد الدواعي وقلة البواعث[1]).

وشعره الذي طبع له في "شعراء الجزائر" أغلبه من القطع الشعرية التي تحتوي على بضعة أبيات خمسة أوستة أوأقل أوأكثر، وأما القصائد الطويلة فيه فكل واحدة تفوق الخمسين بيتا وحتى السبعين، فقد كان

---

1. أ. هـ شعراء الجزائر ج1 ص 130.

الرجل في الغالب قصير النفس في تلك الأشعار، إلا فيما يتصل ببعض المواضيع الهامة التي يبدو أنها كانت تشغل باله وتوافق مزاجه، مثل التهاني والرثاء كما فعل في قصيدة "رد التحية فرض..." مثلا التي ردّ بها على قصيد السعيد الزاهري في أول عدد من جريدته: "الجزائر للجزائريين" وعنوانها "الجزائر تحيى الجزائر" أي الجزائر"الجريدة" تحي الجزائر"الوطن والأمة" وكلا القصيدتين من النوع الطويل النفس، فقصيدة الزاهري بها أكثر من خمسين بيتا، وقصيدة العقبي في رد التحية وتهنئة الزاهري تفوق السبعين بيتا، هذا مطلعها:

حيّ (الجزائر) مادامت تحيينا ❖❖ وانهض بشعب قضى في جهله حينا

وفي الرثاء أيضا كان يطيل النفس في شعره، فهذه مرثيته التي رثى بها العلامة الجزائري "الشيخ المكي بن عزوز" الذي توفي ودفن بالأستانة، وكانت تربطه به صداقة متينة وودّ مكين، رثاه بقصيد به خمسون بيتا حسبما نشر له في كتاب"شعراء الجزائر" هذا مطلعه:

هي الدار في أحداثها تَتَجرّمُ ❖❖ سرور فأحزان! فعرس فمأتم!

حنانيك! إنا للمنية عرضة ❖❖ وكل ابن أنثى فهو للموت مسلم

هكذا نجد العقبي يطيل في شعره كما في نثره كلما همّه الأمر ودعاه واجب النضال في هذا المجال، مجال الرثاء أو غيره من المجالات الدينية والوطنية أو القومية، كما فعل في حادث الاعتداء على ابن باديس ومحاولة اغتياله ظلما وعدوانا، من طرف بعض الخصوم الطرقيين سنة1927م. ولكن الله حماه ونصره على ذلك المجرم الجاني، يقول العقبي في طالع قصيده الذي يعتبر من أطول ما قيل من شعر في هذا الحادث

الذي تناوله كبار شعراء المغرب العربي" في تونس والجزائر ومراكش"، فقد فاقت أبياته الخمسين بيتا

❖ يقول العقبي:

عبد الحميد النصر قد وافاكا ❖❖ رغم المنافس والذي عاداكا
واصلت سيرك مرشدا ومعلما ❖❖ ولسوف تحمد بعدها مسراكا
إن كادك الأعداء يوما أو سطوا ❖❖ فالله جلّ جلاله يرعاكا
ما شَوَّهوا لك سمعة كلاّ، وإن ❖❖ قصدوا بذاك الحَطَّ من علياك
أو ضرّجوك بذلك الدم واعتدوا ❖❖ فلقد أقاموا أمة تهواكا

...الخ ومن الأغراض الشعرية التي تناولها غير التهاني والرثاء، والقضايا الوطنية والاجتماعية والوصف والغزل والاخوانيات والوجدانيات والإسلاميات[1].

ففي الاخوانيات يتعرض إلى خصال أصدقائه وصلاته المتينة بهم، فهذا مثلا أمير البيان شكيب أرسلان الذي كانت له صداقة خاصة به، وقد كنّاه "بأبي الحارث" أي الأسد لأن "أرسلان" لفظ تركي معناه "الأسد"، قال العقبي مضمنا هذا المعنى "الأسدي".

يا "أبا الحارث" العظيم الهمام ❖❖ أنت - والله- أرسلان وليث
أنت في الحرب من أسود الشرى ❖❖ فعلا وفي السلم بحر جود وغيث

---

1. من آراء الإطلاع على بطولاته الشعرية فليطلبها في كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) للأستاذ الهادي السنوسي من ص 130 إلى 150.

وقد كان شكيب فعلا مجاهدا حمل السلاح في طرابلس مع الليبيين ضد الإيطاليين، كما كان عبد الرحمن عزام باشا، وسليمان باشا الباروني، وعمر المختار وآخرون، "وأخبره الأمير شكيب بولد ولد له" سماه "غالبا" رجاء أن يكون له الغلب في تلك الحرب، وقال له: فأنا والحمد لله "أبوغالب" من الآن، فضمّن شاعرنا هذا المعنى في قوله:

"أبا غالب"لازلت في الناس "غالبا"

ونجم العدا للشؤم والنحس غاربا

ولازلت ترقى في المعالي بهمة

بها تمتطي من صهوة المجد غاربا

وأرسل شكيب له رسما صغيرا قائلا: هذا رسم صغير أرسله لك تذكار حب وودّ، فكتب له شاعرنا هذين البيتين على ذلك الرسم قائلا:

رسم صغير الحجم لكنه ❖ شكل (أبى غالب) الأكبر
ذكرني لمّا بدا قوله: ❖ "ليس على الله بمستنكر"

يشير إلى قول الشاعر القديم "ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالَم في واحد"، وهذا في معنى قولهم: "واحد كألف وألف كأف"، وفعلا قد يساوي رجل عظيم أمة كاملة بينما الألوف منها لا تساوي شيئا. وقد"كان ابراهيم أمة" كما جاء في القرآن الكريم، هكذا صوّر العقبي صاحبه في هذين البيتين على ذلك الرسم الصغير الحجم لذلك الشخص الكبير.

رسم صغير الحجم لكنه ❖ شكل " أبي غالب" الأكبر

ذكّـرنـي لـمّا بـدا قـولــــه: ❖ " ليس على الله بمستنكـر"

أما في رسمه هو "الطيب العقبي" فيقول فيه:

رسمي يغيض عدوي حين يبصره ❖ فزاده الله غيضا حيثما كانـا
أمّا الصديق فلا ينفك مبتـهجـا ❖ به فيذكرني سـرّا و إعـلانـــا

ويقـول في خصومه الـذين لا يأبـه بهـم ولا يقـيم لهـم وزنـا في الحقيقـة والواقع:

وإذا الـزمـان أراد حـرّا بالأذى ❖ تخـذ اللئام لمبتغاه سـلاحـا
كم رامني بنكـأيـة فـرددتـه ❖ وبهم لقد جرح الفؤاد جراحـا

ويقول فيهم من أخرى:

عذيري من قوم بَغَوا وتجاوزوا ❖ حدودا لقانون يرون احترامه
يريدون إطفـاءا لنـور عقولـنا ❖ ويأبى إلاه العرش إلا تمامه

وفي الزواج بالأميات غير المهذبات وغير المؤدبات يقول:

مـا حـــيـــاة الـمـرء مـع زوج ❖ ..لـــه لـــيـــســـت أديبـــه
غـــيـــر ســـجـــن أبـــد يّ ❖ عظمت فيه الـمصيـبـــه[1]

وتـدخل شـاعرنا "العقبي" في قضية شـائكة بـين شـاعرين كـبيرين: قديم وحديث. القديم هو الشـاعر الفيلسوف"أبـو العـلاء المعـري" والحـديث هو أمير الشعراء "أحمد شوقي".

---

1. تصوروا كيف كانت حالة علمائنا الكبار وهم متزوجون بنساء أميات جاهلات كان فقهاءنا إذ ذاك كانوا يحرمون طلب العلم للمرأة!..

فالمعري ينعى على أبيه ويلومه أنه كان سببا في ميلاده ومجيئه إلى هذا العالم الظالِم والمُظلم الذي لا خير فيه، إلا الشقاء والأساء والمحن والأرزاء، ولذلك تعهّد هو"المعري" ألاّ يتزوّج ويعيش أعزب في الدنيا، ولايكون سببا في مجيء أطفال وأبناء لهذا العالم المليء بالآفات و الموبقات المقلقات، وبقي كذلك أعزب حتى مات، وأمر أن يُكتَب على قبره بعد مماته هذا البيت:

هذا ماجناه أبى علي ❖❖ وما جنيت على أحد

و"شوقي" لا يرى هذا الرأي بل يعاكسه ويطلب من العقلاء الحكماء أن ينصفوه.

❖ يقول شوقي:

بيني وبين "أبي العلاء" قضية ❖❖ في العلم أَسترعِى لها الحكماء

هو قد رأى نُعمى أبيه جنأية ❖❖ وأرى الجناية من أبي نعماء

فتدخل شاعرنا حَكَمًا عادلا في هذه القضية بين الشاعرين العظيمين أمير الشعراء المعاصر لشاعرنا، وفيلسوف الشعراء القديم حكيم المعرَّة ورهين المحبسين:

❖ فقال العقبي:

قد قال "شوقي" في الحديث مقالة ❖❖ في شعره نادى لها الحكماء

ردًا على "شيخ تقادم عهده" ❖❖ ورآه من جهة البرور أساء

فأجبتُه: لو كنته لعذرته ❖❖ أو كان مثلك قوله ما جاء

فأشكر أباك فقد حييت منعّما ❖❖ و"أبو العلاء" قضى الحياة شقاء
فلئن رأى نُعمى أبيه جناية ❖❖ فلقد أصاب لما به قد باء
ولئن ترى أنت الجناية نعمة ❖❖ فالحق قولك ما نطقت هراء
كل أصاب إذا نظرت لحاله ❖❖ والله أنفذ فيكما ما شاء

هكذا تصرف شاعرنا في هذه القضية وأنصف الشاعرين بقوله لشوقي: لو كنت فقيرًا معدمًا أعمى مثل المعرى لعذرته، ولو كان هو غنيا منعّما مثلك ما قال قوله، (لو كنتَه لعذرتَه، أوكان مثلك قوله ما جاء) فأنصف الرجلين وعذرهما فيما قالا:

كل أصاب إذا نظرت لحاله ❖❖ والله أنفذ فيهما ما شاء

وفي الغزل العفيف النظيف يذكر زيارة الطيف في المنام[1] مضمنا بين شعر لأبي الطيب المتنبي شاعر الدنيا وشاغل الناس.

بقول المتنبي: "البيت الذي ضمّنه العقبي"

فذقت ماء حياةٍ من مقبّلها ❖❖ لو صاب تربا لأحيى دارس الأمم

❖ ويقول شاعرنا:

محبوبة سكنت قلبي وما برحت
وذكرها بدل التسبيح ملا فمي
زارت فراشي على بعد وقد غمضت
عيني لأقنصها في هجعة الحلم

---

1. خيال اللطيف وطيف الخيال: الذي يراه النائم في الحُلم.

ومذ وضعــت فمــي عـلـى فمــهـــا

ذكـرت قـول"أبي" في سـالف القـدم[1]

فـذقـتُ مـاء حـيـاة من مُقَبّـلـهـــا

لو صاب تُربا لأحيى دارس الأمــم

وثابتِ الروح في جسمـي فخلتُ لهــا

أني بُعِثت بُعَيْـــدَ المـوت مـن عـدم

وكيف لا وهـي لـو مَسَّت بريقتـهـا

"حوت الكليم" لغاض الماء في الظلم

ولـو رأى المتنبـي شمـس طلعـتـهـا

لقام من قـبـره يـمشـي عـلـى قـدم

ويقول شاعرنا في مناسبة أخرى يشير إلى سحر العيون وأثر الجفون:

ربّ حوراء غضيــض طر فـهــا ❖ من بنات الترك تزهـو بالحـور

إن أقل: باللحظ قلبـي سحـرت ❖ قلت: سحر اللحظ أدهى وأمـر

ويقول في بعض الآفات الاجتماعية كالخمر والفجور:

شر الورى من عاش طول حياتـه

فـي الخمـر منهمـكـا وفـي لـذاتـه

---

1. قال شاعرنا عنيْتُ(بابي) أبا الطيب المتنبي بقرينة (سالف القدم)، وقد كان أستاذي الشيخ الحبيب الدويدى التونسي، إذا أراد أن يذكر بيتا للمتنبي يشير إلي ويقول لي: قال أبوك يعني (أبا الطيب المتنبي) وهو على طريق الاضمار والحذف في التورية لأن اسمى (الطيب) وهو من البديع في البلاغة العربية.

لا يرعـوى عـن غيــه وضـــلالــه

وإذا انتشـى فإلـى الشقـاء بـذاتـــه

أشــقــى ذويـــه ووالـديـه وزوجــه

وبنـــوه قد تعـبـوا وكـــلّ بناتــه

قد ضيّع الدنيـا و أذهـب عقــلـه

والدّين أصبـح من كبـار عــداتـه

إن عـاش فهـو إلى الضـلالـة سـائـر

أومات كيف يكون بعد مماته؟!

يسطو على جيرانه في سـكـره

وإذا صحـا لــم يأمنـوا عـثراتــه

وكفـاه من خــزي مقـالـة قـائـل:

"لا تصحب السكران في حالاته"

ويرد على بعض المناوئين له فيقول:

ألا إنني من خير من أنجب القُطر

أريد ولكن لا يساعدني الدهـر

حنيف أرجى الخير للناس كلهم

وأهدم بالإسلام ماأسس الكفر

وقد حسب الجهال أني كمثلهم

وما أنـا ممّن دأبه الكبر والفخـر

وقالـوا افتـراء إنـنـي غيـر مسلـم

وماصدقوا في القول كلا ولابروا

هذه نماذج قليلة من شعر شاعرنا في شبابه عندما كان شابا في الحجاز مقيما بالمدينة المنورة.

وهي في شتى الأغراض والمناسبات، وقد رأيتم أنها من نوع الشعر السلس الجميل وليست من نظم الفقهاء، ولا من شعر العلماء المتكلف الثقيل والركيك أحيانا أخرى.

وإذا أحببتم الاطلاع على شعره الفحل وهو كهل مقيم في الجزائر وعلى المطولات منه بالخصوص، فاطلبوه في كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" للهادي السنوسي.

هكذا ولتعلموا أن علماءنا الأئمة: العقبي، وابن باديس، والابراهيمي، وحتى الشيخ المكي بن عزوز، والشيخ الخضر حسين ومحمد العيد وأحمد سحنون والنعيمي.

كما كانوا أئمة في الفقه الإسلامي وفي الدعوة إلى الله، كانوا كذلك أئمة أدب وشعر، فهم يجيلون أقلامهم في شعر وفي النثر كما يريدون، والمهم أن شعرهم يأتي كشعر الشعراء الحقيقيين بليغا قويا يأسر القلوب والأسماع بجرسه وحسن سبكه، بخلاف أئمة الإصلاح وزعمائه السياسيين في الشرق: كالأفغاني، وعبده، ورشيد رضا، والكواكبي، وزغلول، وعزابي، وغاندي، ونهرو، الذين لم يستعملوا الشعر سلاحا في النضال كما استعمله زعماؤنا من عهد الأمير عبد القادر إلى عهد علال الفاسي وغيرهم في القديم والحديث. ذلكم رأيي في أدب العقبي فاقبلوه أو ردوه.

- وهذه آراء بعض أئمتنا في العقبي الأديب الشاعر:

يقول فيه الشيخ"مبارك الميلي" في ختام كتابه القيّم "رسالة الشرك ومظاهره" تحت عنوان "ابتداء الحرب على حكومة القطب" "أول صحيفة دعت إلى تحرير الأمة من ضغط "ديوان الصالحين" هي صحيفة "المنتقد سلف "الشهاب"، وأعلنت في صدر أول عدد منها مبدأها الإنتقادي، وكان أول استخفاف وسخرية بحكومة القطب وديوانه ما نشرته تلك الصحيفة في عددها السادس من مقال لنا تحت عنوان: "العقل الجزائري في خطر"، فاستاءت لها الدوائر الطرقية.

لكن: "أتى الوادي فطم على القرى" إذ حمل العدد الثامن من نحره المشرق قصيد"إلى الدين الخالص" لأخينا داعية الإصلاح وخطيب المصلحين الشيخ الطيب العقبي أمد الله في أنفاسه. فكانت تلك القصيدة أول معول مؤثر في هيكل المقدسات الطرقية، ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجرأة، ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطرقية، إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه وحالته في التقديس والجمود، لكل خرافة في الوجود، وقد أحببنا أن نثبتها في هذه الرسالة لمناسبتها لموضوعها، "رسالة الشرك ومظاهره"[1].

ومعلوم عند مثقفي العربية قبل الحرب العالمية الثانية، أن الأمير شكيب أرسلان يَعتَبِر العقبي أحد أساطير الأدب العربي في الجزائر،

---

1. الطبعة 3-1403هـ/1986م ص 283 وما بعدها.

وذلك في رسالة له إلى الأديب الشاعر السعيد الزاهري، وأثبتها هذا في مقدمة كتابه"الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" يقول فيها الأمير:

- إن أركان حَمَلَة الأدب في الجزائر ثلاثة هم: ابن باديس والعقبي والزاهري.

ويقول الزاهري:

- فأجبته عنها أن هناك آخرون عرَّفته بهم.

أما شيخ أدباء الجزائر وفيلسوف علمائها العلامة الحكيم "الشيخ البشير الابراهيمي" فقد تقدم في أوائل هذه الكلمة وصفه لقلم العقبي في معرض تاريخه للحركة الإصلاحية عند كلامه عن جريدة"الإصلاح" التي أصدرها العقبي في بسكرة قال: "كان اسمها أخف وقعا، وإن كانت مقالاتها أسد مرمى وأشد لذعا" بالنسبة للطرقيين والحكوميين من خصوم الإصلاح والمناوئين له.

ونختم هذه الكلمة "برأي ابن باديس" في أدب العقبي وشعره، قال يذكر رفيقيه "العقبي والابراهيمي" وهم في رحلة على ظهر باخرة تقلهم من الجزائر إلى مرسيليا سنة 1936م قال: "يعرِف الناس العقبي واعظا مرشدا يُليِّن القلوب القاسية بقوة بيانه وشدة عارضته، ولكن العقبي الشاعر لايعرفه كثير من الناس. فلما ترنحت بنا السفينة على الأمواج، وهب النسيم العليل هبّ العقبي الشاعر من رقدته، وأخذ يشنف أسماعنا بأشعاره ويطربنا "بأناشيده" بنغمته الحجازية مرة وبالتجدية مرة أخرى، ويرتجل الأبيات في المناسبات. وهاج بالرجل الشوق إلى الحجاز، فلو ملك

قيادة الباخرة لما ساربنا إلا إلى "جدة"، دون تعريج على "مرساي"، وإن رجلا يحمل ذلك الشوق كله للحجاز ثمّ يكبته ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها، لرجل ضحى في سبيل الجزائر تضحية أيّ تضحية"

❖ ويقول في الابراهيمي:

"وبينما كان حكيمنا الابراهيمي يساجل العقبي ذكرياتهما في الحجاز، ويفيض في الحديث عن أيامه هو "بالشام" إذا به ينتقل بنا فجأة إلى "الأندلس"، عجبنا لتلك القفزة منه "من الشرق إلى الغرب"، حتى ذكرنا ما بين الشام والأندلس من علاقات في فتحها وانتقال الخلافة الأموية إليها، قلنا إن الأستاذ قد عوَّضهُ اللّه من القوة في عقله ما ضاع عليه في رجله "العرجاء"، وكدنا نغبطه على عَرَجِه"[1].

- ثم يقول عن نفسه:

لقد كنت مأخوذا بأدب الرفيقين ولفظهما، وكنت أساوق الابراهيمي الحافظة فيما ينشد من "نفح الطيب"، وقد طال عهدي به، ولم تفارقني مهنة التعليم فكنت أجدني من غير قصد أقرر نكتة في بيت شعر أو عبرة في حادثة من التاريخ، فيوافق الرفيقان وقد يخالفان"[2].

---

1. عن مجلة (الشهاب) ج7، م12 ص305 وما بعدها.
2. عن مجلة (الشهاب) ج7، م12 نفس المرجع.

الشيخ مبارك الميلي

(1945-1898)

الشيخ مبارك الميلي

- **تعريفه:**

ولد بجبال "الميلية" في دوار أولاد مبارك" عام1898م، وأصيب باليتم، وفي "ميلة" نشأ وتثقف ثقافته الأولى، فحفظ القرآن وأخذ المبادئ الأولية على شيوخ أجلهم وأشهرهم الشيخ محمد بن معنصر العلمي الميلي، الذي لازمه وتأثر به غاية التأثر، ثمّ انتقل إلى قسنطينة وهو في أوج تكوُّنه الديني والعلمي والوطني، ليلتحق بدروس الشيخ عبد الحميد بن باديس في أوائل عهده بالتدريس، وتكوَّن بينهما انسجام تام وتجاوب كامل، فكان أعظم تلاميذ ابن باديس وأعلاهم مكانة وثقافة وأعرفهم بمبادئ ابن باديس وأغراضه في الإصلاح الديني والدنيوي.

ثم ارتحل إلى تونس فدخل الجامعة الزيتونية ونهل من معينها ما شاء إلى أن تخرج سنة 1924 "بشهادة التطويع" كما كانت تُدعى حينئذ. وكان من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم الأساتذة: محمد النخلى والصادق النيفر وبلحسن النجار والطاهر بن عاشور وغيرهم من رجال العلم والأدب الذين تلقى منهم قبله أستاذه الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمهم الله جميعا- ، وكان أول عمل باشره بعد رجوعه من تونس: إدارة المدرسة العربية الحديثة التي أنشأها ابن باديس في "سيدي بومعزة" بقسنطينة وتحمل اسم "المكتب العربي"، التي تحولت من بعد إلى اسم "مدرسة التربية والتعليم الإسلامية"، ثمّ انتقل من قسنطينة إلى "الأغواط" فأدار مدرستها هنالك "بعد محمد السعيد الزاهري الذي تحوّل إلى تلمسان"،

وقام الشيخ مبارك بحركة إصلاحية شاملة ما تزال آثارها إلى اليوم.

وفي "الأغواط" قضى أزهى وأزهر أيامه، فكان شعلة من النشاط والعمل الدائب المثمر، يُعَلِّمُ التلاميذ في المدرسة ويعظ الناس في المسجد ويحاضر الشباب والعمال في النادي ويكتب في الصحف ويؤلف كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" بجزأيه الأول والثاني اللَّذَين طبعا في حياته، وبقي الثالث مخطوطا فأكمله وطبعه ابنه محمد الميلي. وكِتَاباتُهُ في الصحف تتسم بشيء من العنف والشدة على العكس من طريقة أستاذه ابن باديس المعروفة باللين والرفق وقتئذ مع خصوم الإصلاح ومناوئيه، وكثيرا ما كان يكتب بإمضاء "بيضاوي" ولمّا تكونت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة1931 انتخب أمينا عاما لماليتها. ثمّ عاد إلى بلده "ميلة" وأسس بها مدرستها الشهيرة ثمّ النادي الإسلامي والمسجد الجامع، وكان يخرج منها لتفقد الحركة الإصلاحية لشمال قسنطينة وساحلها.

وأسنِدَتْ إليه إدارة تحرير"البصائر" لسان حال جمعية العلماء في عهودها الأولى، فقام بها أحسن قيام، ورغم ما كان يعانيه من مرضه المزمن لم تفتر له همة ولم يخب نشاطه، واستمر قائما بواجباته على أحسن وجه، وكان على اتصال دائم بالرئيس ابن باديس إلى أن توفاه اللّه فتأثر لوفاته بالغ التأثر. وانتُدِب لاستخلافه بعد وفاته في التدريس لطلبته بقسنطينة، ولكنَّ مرضه المزمن عاقه، فحُوِّل طلبته إلى الشيخ العربي التبسي "بتبسة". واكتفى الشيخ مبارك بثلاثة دروس يلقيها بمدينة قسنطينة في يوم واحد في الأسبوع: "درّس الشبان ودرّس النساء والدرس العام للرجال" التي كان يقوم بها ابن باديس، ثم يعود إلى "ميلة" لعلاج مرضه الذي أودى بحياته.

وتوفي الشيخ مبارك يوم 09 فيفري عام 1945 رحمه الله واسعة، وترك من الآثار المطبوعة كتابه: تاريخ الجزائر ورسالة الشرك ومظاهره.

• مكانته:

امتاز الشيخ مبارك بمكانة خاصة بين أعضاء جمعية العلماء الذين يكاد ينحصر نشاطهم في الوعظ والإرشاد وفي التربية والتعليم، وفي الكتابة والخطابة، فهو زيادة على تلك الأعمال التي عرفوا بها، انكب مع ذلك على التأليف مما بوّأه مكانة خاصة بين إخوانه الذين شغلتهم تلك الأعمال على التأليف. وقد تجسدت أعماله التأليفية في كتابه: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" في ثلاثة أجزاء كانت من أحسن ما كتب في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، ثم في كتابه "رسالة الشرك ومظاهره" التي خدم بها الإسلام ونصر السنة النبوية، وقاوم بها الضلال والعوائد الباطلة والخرافات المفسدة للعقول. كلا الكتابين وضعا بطريقة علمية غاية في الدقة والموضوعية والنزاهة، وبروح وطنية لا تعصب فيها ولا مغالاة، دلت على سمو روحه وعمق تفكيره وبراعة أسلوبه وصحة أحكامه واستنتاجاته.

هذه الأعمال الثقافية العلمية بما فيها: المقالات والبحوث التي كان ينشرها في الصحف والمجلات أعطته قيمة أي قيمة في داخل الجزائر وخارجها مما سأستشهد عليه بعد حين من آراء غيري فيه. جعلت إشعاعه يغمر كافة أنحاء القطر، وصدى جهاده يتجاوز حدود الجزائر ليصل زملاءه ومشائخه في الزيتونة بتونس، تارة عبر تلاميذه الذين كان يبعث

بهم للدراسة هنالك، أمثال: أحمد شطة وبوزيد قصيبة وبوبكر الأغواطي، وتارة من خلال كتبه ومقالاته في الصحف والمجلات التي عرَّفت به في المشرق والمغرب العربيين.

القبة محمد الصالح رمضان

• من آراء المفكرين المعاصرين فيه:

1. كلمة ابن باديس فيه لما أصدر كتاب تاريخ الجزائر قال بعد الحمدلة: ((أخي مبارك سلام ورحمة وبعد: حياك الله تحية من علم وعمل وعلّم، وقفت على الجزء الأول من كتابك "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" فقلت لو سميته "حياة الجزائر" لكان بذلك خليقا، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية، بعدما كانت الصورة أشلاء متفرقة هنا وهنالك، وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما يبقيها حية على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا...)).

أخي مبارك: إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف من أحيا أمة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها... فليس - والله- كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال. وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا، فسيكون في الأجيال القادمة كثيرا، وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلا - وأنا واحد من هذا الجيل- فبلسان من يشعرون شعوري أشكرك لأقوم بما علينا من واجب، لا لأقابل مالك من حق.

"جزاك الله خير ما جزى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وإنصاف والسلام عليك من أخيك ورحمة الله")).

حصن الماء "فوردلو" يوم1347.01.10 هـ
عبد الحميد بن باديس

2. ومن كلام توفيق المدني فيه: عرفت مبارك الميلي أثناء معركة الكفاح بتونس، وكان - بعد دراسته بها وملء وطابه منها- يتردد عليها الفينة بعد الفينة، يغشى مجالسها ويتصل بشيوخها وطلبتها، ويحيط به في رحاب جامع الزيتونة العامر الجم الغفير ممن سبروا غور مواهبه على اتساع مداركه، بل منهم من كان يحدثني ويقول: إن هذا رجل جزائر الغد ومفجر ينبوع النهضة العتيدة الصالحة التي سوف تنفخ في الصور، فتنفض على البلاد طبقة الرماد وتحيي الأمجاد.

3. أما الإبراهيمي فكلامه فيه كثير. كان يشيد به في"البصائر" كلما حلت ذكراه يقول مثلا في ذكرى وفاته الخامسة سنة1950 عدد109 من"البصائر": "طَلَعَت علينا تلك السنة السوداء الداهية الدهياء، وهي موت مبارك، فانتزعت منا فارسا من الميدان أحوج ما كنا إلى رأيه وعلمه، غنائه وكفاءته، ثم انتصفت علينا الصيلم الصلعاء "هي حادثة 8 ماي 1945" ثم انتهت وإخوان العهد كلهم في غيابات السجون والمعتقلات، ثم توالت الخطوب وتواترت الفتن، وامتحن هذا الوطن بأشنع ما امتُحِنَ به الأوطان: نقص في الرجال، ونقض للعهود، وضلال في الرأي، واختلاف فيه. وبقيت هذه الفئة القليلة مزودة بإيمانها بالله، متكثرة بأعمالها للعلم،

تلقى الجفاء والتنكر من القريب فتعتصم بالصبر، وتلْقى الكيد والتربص من الغريب فتتحصَّنَ بالثبات. وهي على ذلك إلى أن يفتح الله بينها وبين قومها بالحق، ويحكم بينها وبين خصمها بالعدل.. "إلى أن يقول بعد صفحة كاملة":

- وإن لأخينا مبارك الميلي على الجمعية حقوقا. فقد كان مرجعها يوم تحلك المشكلات، وتضل الآراء، فيشرق عليها بالرأي كأنه فلق الصبح، وقد كان معقلها يوم تشتبه المسالك، وتكاد الأقدام أن تزل، فيثبت على الحق كالجبل الراسي، وكان منها بحيث لايجتري عنها مجتر، ولا يفتري عليها مفتر، إلاّ رمته منه بالسيف الذيلاتنبُو مضاربه، ويمينا لولا ملازمة المرض الذي أودى به، وتأثيره في قوته البدنية وفي قوته العقلية لكان فلتة في البطولة العلمية بهذا الوطن، كما كان آية في الذكاء ودقة الفهم والجلد على البحث والإطلاع، وإن واجب جمعية العلماء في هذا النوعمنإحياء ذكره ينحصرفي ترويج الباقي منمؤلفاته المطبوعة، وإعادة طبعها طبعا فنيا مصححا وإتمام تاريخه للجزائر.

وإنَّ لأخينا على الأمة الجزائرية بما علَّم وكتب وبما نصح وأرشد و... أن تنشط جمعية العلماء على إقامة "معهد ثان بالعاصمة" تُطلق عليه اسم مبارك الميلي، تُحيي به ذكره وتخدم به لغتها ودينها، وتخطو به في العلم خطوة للأمام.. الخ.

4. كلمة شكيب أرسلان: اتصل أمير البيان ورأس الشرق المفكر الأمير شكيب أرسلان بالجزء الأول من تاريخ الجزائر للميلي، فكتب إلى صديقه الشيخ الطيب العقبي رسالة جاء فيها قوله عن ذلك الجزء:

((...وأما تاريخ الجزائر لمبارك الميلي فوالله ما كنت أظن في الجزائر من يفْرِي هذا الفرْي، ولقد أُعجبت به كثيرا، كما أني معجب بكتابة ابن باديس، فالميلي وابن باديس والعقبي والزاهري هم حَمَلَة عرش الأدب الجزائري الأربعة)).

5. ومن كلام لمحمد الصالح الجابري التونسي في كتابه "النشاط العلمي والثقافي للمهاجرين الجزائريين بتونس" أشاد فيه بنشاط الطلبة الجزائريين هنالك يقول فيه عنهم: "إن الكوكبة الأولى منهم كانت تضم ثلة من ألمع التلاميذ النجباء الذين اصطفاهم ابن باديس اصطفاء، وتخيرهم لهذه المهمة لما لمس فيهم من النبوغ والتفوق تحقيقا لبرنامجه العلمي وهدفه البعيد في تكوين جيل من المصلحين العلماء... وقد كان هذا الرعيل الأول يضم بين أفراده أسماء أصبح لها شأن فيما بعد... أمثال مبارك الميلي وعبد السلام السلطاني والعربي التبسي ومحمد السعيد الزاهري ومحمد العيد خليفة..." ثم يذكر مبارك الميلي ويقول فيه:

(...وما إن تخرج من الزيتونة وتحصل على شهادتها حتى انضم إلى الدعوة الإصلاحية وباشر المهمة التي أُوكلت إليه في مجالي: التعليم والإرشاد، ولازم شيخه ابن باديس واقتبس منه الوفاء للمبادئ والمُثُل، وعزَفَ مثله عن الوظيف الرسمي، والتمس في طلبه الغاية التي تمحض للقيام بها، ونذر لها حياته وفكره، وهي الإسهام في النهضة الجزائرية... وقد ظل هذا ديدنه وشغله الشاغل في قسنطينة أو في الأغواط أو في ميلة وغيرها من المدن الجزائرية)

6. ومما جاء في تقرير جمعية العلماء عن "رسالة الشرك" للشيخ مبارك الميلي بقلم كاتبها العام الشيخ العربي التبسي: ((المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر أن ما اشتملت عليه "رسالة الشرك ومظاهره" لمؤلفها الأستاذ مبارك الميلي هو عين السنة، وإن هذه الرسالة تعد من الكتب المؤلفة في نشر السنة وردع البدع... وقد خدم بها "الشيخ مبارك" الإسلام، ونشر السنة، وقاوم بها العوائد الضالة والخرافات المفسدة للعقول...))

والمجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر بإجماع أعضائه أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، ويوافق على ما جاء فيها، ويدعو المسلمين إلى دراستها والعمل بما فيها، فإنه العمل بالدين، والله يضاعف للمحسنين إحسانهم والحمد لله رب العالمين.

عن جمعية العلماء الكاتب العام للجمعية.

العربي بن بلقاسم التبسي.

الصحافي الشهيد

أحمد بوشمال

(1958-1899)

الصحافي الشهيد أحمد بوشمال

- **تعريفه:**

ولد أحمد بوشمال سنة 1899 بمدينة قسنطينة وفيها نشأ وترعرع. دخل كتاب "سيدي ياسمين" بين رحبة الصوف وسيدي جليس حيث حفظ القرآن، ودخل المدرسة الابتدائية الفرنسية هنالك، وواصل التعليم فيها حتى النهاية.

اشتغل في صباه بصناعة الأحذية الأهلية، ثم تعاطى التجارة في دكان له بنهج الأربعين شريفا نهج عبد الحميد بن باديس حاليا.

ولما بدأ الشيخ ابن باديس حركته التعليمية بعد تخرجه من جامع الزيتونة بتونس قبيل الحرب العالمية الأولى، كان بوشمال من أوائل من تتلمذ عليه دون أن يتخلى عن تجارته في دكانه.

وحين عزم أستاذه على شراء مطبعة تجارية تعينه وتضمن له حسن سير صحافته، تنازل بوشمال له عن محله التجاري ليكون مقرا "للمطبعة الإسلامية الجزائرية" ثم صار شريكا له في المطبعة.

وأنشأ ابن باديس جريدة "المنتقد" سنة 1925 وعيّن بوشمال مديرا لها وصاحب امتيازها لخبرته التجارية ومعرفته للّغة الفرنسية ولثقته فيه.

ولما أوقفت الحكومة "المنتقد" لشدة لهجتها، عوضها الشيخ بجريدة "الشهاب" ولطّف من لهجتها لتبليغ رسالته، وكان بوشمال مديرها وصاحب امتيازها كما كان في سلفها، ويخرج لترويجها وجمع

اشـتراكاتها وتكـوين مـشتركين جـدد لهـا. واسـتمرت الـشهاب أسـبوعية نحو أربع سنوات، ثم صارت مجلة شهرية.

أنشأ بوشمال مع ابن العابد الجيلالي جريدة "أبو العجائب" الفكاهية التهذيبية سنة1935 وتولى الجيلالي رئاسة تحريرها. وساعد بوشمال جريدة "الشعلة" لشبيبة المصلحين برئاسة تحرير حوحو وكانت تطبع في مطبعة الشهاب، كما ساعد جريدة "الجحيم" للعمودي والزاهري قبل ذلك سنة1933 وكانت تطبع عنده، وساعد جريدة "البصائر" لجمعية العلماء لما تحولت إدارتها من العاصمة إلى قسنطينة.

كان العضد الأيمن لابن باديس في أموره الإدارية والشخصية وأمين سره ومحل ثقته، كما كان كذلك مع خليفته الإبراهيمي في قسنطينة وصحبه الميلي والتبسي وخير الدين. وانتخب عضوا إداريا لمجلس جمعية العلماء سنة 1946.

تعرض للاعتقال ثلاث مرات في حرب التحرير كان آخرها يوم: 13. 09. 1958 م وكان ذلك آخر العهد به، ولم يظهر له أثر بعد ذلك، فكان مصيره مجهولا كمصير مشايخ معهد ابن باديس: التبسي وحوحو والعوادي وبوشمال الذين أخذوا وعذبوا وأعدموا. ولم يُعرف لرفاتهم مكان ولا لوفاتهم زمان مثل كثير من ضحايا زبانية الجحيم الاستعماري من العسكريين والإرهابيين المدنيين في طول العباد وعرضها. رحم الله الشهداء والمجد والخلود لهم.

من هو أحمد بوشمال[1]؟

- نظرة عامة:

نشأ السيد أحمد بوشمال في أحضان الحركة الوطنية الإسلامية في مهد النهضة الوطنية الشاملة مدينة قسنطينة، النهضة التي تزعمها سياسيا بعد الحرب العالمية الأولى الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر سيد المجاهدين في وقته، ثم تبنتها "جمعية نجم شمال إفريقيا" بفرنسا، وقادها ثقافيا ودينيا العلامة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس في العشرينات والثلاثينات.

وكانت الأولى توصف بحركة النخبة، والثانية تعرف بالحركة الإصلاحية التي تبلورت من بعد في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" ابتداء من5 ماي1931 برئاسة ابن باديس حتى وفاته في 16 أفريل 1940.

كان لسان حال الحركة الأولى "السياسية" جريدة "الإقدام" للأمير خالد بالعربية والفرنسية يسانده فيها ويدعمه السيد صادق دندان، وكان لسان حال الحركة الثانية الثقافية الدينية جريدة "المنتقد" ثم "الشهاب" بالعربية لابن باديس، يدعمه فيهما ويساعده السيد أحمد بوشمال كمدير وصاحب امتياز لهما.

---

1. ألقيت هذه الكلمة في الملتقى الوطني الأول للكتاب الشهداء يومي16و17 فيفري الذي نظمه اتحاد الكتاب الجزائريين، وجرت أعماله في المتحف الوطني للمجاهدين بمناسبة اليوم الوطني للشهيد سنة 1997 تحت الرعاية السامية للسيد سعيد عبادو وزير المجاهدين وبحضور عدد من المسؤولين مثل رؤساء المنظمات الوطنية، للمجاهدين وأبناء الشهداء وأبناء المجاهدين، إلى جانب عدد من رجال الفكر والثقافة والأدب.

وكان من أقوى أنصار الأمير خالد في قسنطينة الضابط الشاب المتوقد حماسة ووطنية حتى النخاع:

الدكتور موسى، الذي خاض غمار الحرب العالمية الأولى مثل الأمير خالد وأبليا فيها البلاء الأكبر وخرجا منها سالمين بدرجات عليا: الأولى برتبة "كابيتان" والثاني برتبة "يوتنان". وخاضا معارك سياسية عنيفة ضد التسلط الاستعماري. كان الدكتور موسى مهاب الجانب من الفرنسيين محبوبا محترما من الجزائريين.

وكان من أخلص وأقوى أنصار ابن باديس في حركته الإصلاحية بقسنطينة الشاب المهذب السيد أحمد بوشمال وخاصة في الميدان الصحفي والجانب الإداري منه بالخصوص يفديه بنفسه وماله ويتفانى في خدمته.

ففي هذه الحركة الإصلاحية الباديسية ظهر واشتهر أحمد بوشمال صحفيا إداريا بارزا إلى جانب ابن باديس يدعمه ويعاونه في صحافته وفي جميع شؤونه العامة والخاصة. وكان يعتبر ساعده الأيمن وأمين سره ومحل ثقته، وبقي وفيا له حتى بعد وفاته سنة 1940 يسير على نهجه طول حياته إلى أن لقي الله راضيا مرضيا من الله ومن الناس في حرب التحرير الجزائرية، فمات شهيدا تغمده الله برحمته.

• أطوار حياته وعمله الصحفي:

ولد أحمد بوشمال بقسنطينة عام 1899م، فهو أقل من شيخه ابن باديس بعشر سنوات، وفي مدينته تلك نشأ وتربى، وفي كتاب جامع "سيدي ياسمين" في قلب المدينة القديمة حفظ القرآن، وتعلم اللغة الفرنسية في المدرسة الابتدائية الرسمية. واشتغل في صباه بتعلم صناعة الأحذية الأهلية، ثم تعاطى التجارة في دكان له بنهج الأربعين شريفا نهج ابن باديس اليوم.

ولما بدأ ابن باديس حركته التعليمية بعد التخرج من جامع الزيتونة بتونس قبيل الحرب العالمية الأولى، كان أحمد بوشمال من أوائل تلاميذه، دون أن يتخلى عن عمله التجاري، وكان من أوفى مريدي أستاذه وأصدق أصحابه. وحين عزم الشيخ ابن باديس على تكوين صحافة وطنية حرة تنشر أفكاره وتبث دعوته الإصلاحية، فكر في تأسيس مطبعة تجارية لها تمولها وتضمن السير الحسن للجريدة بانتظام، فقدم له تلميذه بوشمال دكانه التجاري ليكون مقرا "للمطبعة الإسلامية الجزائرية"، وهي مساعدة قيمة من التلميذ لأستاذه، فشكره الشيخ وأشركه معه في المطبعة، ثم ألحقا بهما في مشروع المطبعة وتسييرها السيدين:

الزواوي بن القشي وإسماعيل صحراوي، الأول خبير بفن الطباعة فقد كان يحترف هذه المهنة من قبل في "مطبعة النجاح" والثاني مساعد له. وهكذا تكونت شركة المطبعة من هؤلاء الأربعة، وأعطيت إدارة تسيير المطبعة للسيد الزواوي وتعيّن السيد صحراوي عاملا بها.

ثم أنشأ الشيخ سنة 1925 جريدة "المنتقد" وعيّن بوشمال مديرا لها وصاحب امتياز لخبرته التجارية ومعرفته للغة الفرنسية، فتولى إدارة شؤونها بكفاءة حتى عطلتها الحكومة الفرنسية بعد صدور18 عددا منها لأسلوبها النقدي اللاذع. فعوضها الشيخ بجريدة "الشهاب" ولطّف لهجتها لتستمر في نشر فكرته وبث دعوته، وكان بوشمال مديرها وصاحب امتيازها، ويخرج أحيانا لترويجها في الوطن وجمع الاشتراكات وتكوين المشتركين لها.

وبعد أربع سنوات من بروزها "جريدة أسبوعية" تطورت أو ترقت إلى "مجلة شهرية" جامعة في شكل كتاب لطيف ظريف، لها أبواب ثابتة متنوعة واستمرت كذلك أكثر من عشر سنوات كانت فيها من خيرة المجلات الإسلامية، لا تقل قيمة عن مجلات: المنار والفتح والهداية الإسلامية في دعوتها الإصلاحية. وهي المجلة الوحيدة من نوعها في الشمال الإفريقي تتمتع بمكانة مرموقة فيه، لها فيه أتباع مناصرون، ومشتركون وكتاب مراسلون، وتوقفت بعد إعلان الحرب العالمية الثانية.

هكذا استمر بوشمال خمسة عشر سنة يدير ويسير صحافة ابن باديس، ثم بعض الصحف التي كانت تطبع في مطبعة الشهاب، مثل "البصائر" لجمعية العلماء لما انتقلت من إدارة الشيخين: العقبي والزاهري بالعاصمة إلى إدارة الشيخين: الميلي وخير الدين بقسنطينة، و"أبو العجائب" لابن العابد الجيلالي سنة1935، ثم جريدة "الشعلة" سنة 1949 لشبيبة العلماء، وكانت كلها تطبع وتوزع من مطبعة الشهاب وكان بوشمال نعم العون لها جميعا.

هذا هو أحمد بوشمال الصحفي الإداري الذي لمع اسمه في الصحافة الوطنية الإصلاحية، رغم أنه لم يعرف ككاتب مبدع أو مثقف ممتاز، تماما كما كان غيره من بعض الصحافيين الجزائريين أمثال: مامي إسماعيل في "النجاح" ومحمد عبابسة الأخضري في "المرصاد" و"الثبات" وعلي بن سعد في "الليالي"... الخ الذين اشتهروا كأصحاب صحف أوصحفيين، ولم يعرفوا ككتاب مبدعين أو مثقفين بارعين، ما عدا عبابسة "شاعر الأعراش" الذي برع في الشعر الملحون الشعبي، وهو نوع من الإبداع الأدبي على كل حال. ولكنهم كانوا يكتبون في تلك الصحف أو غيرها كتابات عادية لا ترقى إلى الكتابة البارعة المتميزة للكتاب المشهورين.

• بعض ما لحق بوشمال:

كان مما لحق بوشمال من عناء في الميدان الصحفي، كما لحق أستاذه ابن باديس، الذي تعرض للفتك والاغتيال في السنة الثانية من عمر"الشهاب" وبالضبط يوم:1929.12.14 من طرف الجاني العليوي الذي ترصد له ليلا في طريق عودته إلى منزله بعد فراغه من درس التفسير الذي كان يلقيه في الجامع الأخضر بعد صلاة العشاء، فكمن له هذا الجاني الفاتك في مكان مظلم قريبا من داره وانهال عليه ضربا بـ"هراوة" شجّت جبينه وجرحته جرحا بليغا، وكان مع الجاني خنجر "بوسعادي" كان عازما على أن يجهز به عليه بعد صرعه ليقتله، لولا أن الشيخ بإرادة اللّه استطاع أن يمسك بتلابيب الجاني ويطلب النجدة من المارة صائحا: الغوث الغوث، النجدة فأنجدوه وقبضوا على المجرم الجاني وذهبوا به

إلى الشرطة التي حبسته، ثم قُدّم إلى المحاكمة وحكمت عليه بالسجن المضيق والقصة طويلة معروفة[1]. وفيها يقول الشاعر محمد العيد آل خليفة - من قصيد له طويل- :

وكادت يد الجاني العليوي تعتلي

يد الشيخ لولا الله أدركه لولا

حمتك يد المولى وكنت بها أولى

فيا لك من شيخ حمته يد المولى[2]

ويقول فيه داعية الإصلاح الكبير الشيخ الطيب العقبي - من قصيد له طويل أيضا- :

أدموك يا رجل الثبات وقبلها

أدمى الشرار الرسل و النُّساكا

هي حُلّة الشرف الرفيع لبستها

حمراء ضافية.. فجُرّرداكا

وافخر وسر نحو العلى متقدما

تطأ المعاند دائما نعلا كا

نصبوا لك الأرصاد في غسق الدجى

يرجون قتلك خلسة و أذاكا

---

1. نشرت في(الشهاب الأسبوعي) ابتداء من العدد 76 وتوالت في الأعداد التالية، كما نشرت أخيرا في كتاب (صراع بين السنة والبدعة) للأستاذ الشيخ أحمد حماني ابتداء من ص93 وفي كتاب(الشعر الجزائري) للدكتور صالح خرفي في الصفحات من 71 إلى 83.
2. القصيدة في نحو تسعين بيتا بديوان محمد العيد المطبوع بمطبعة البعث قسنطينة سنة 1927 صفحة 122. وكانت قد نشرت في الشهاب أيام الحادثة.

وتقدمت كفّ الأثيم بضربة

قد زلزلت من وقعها الأفلاكا

وقعت على رأس العلوم و ربها

والرأس أثبت ما يكون هناكا

واستلّ موسى للشقاء أعدها

فكفيتها والله قد أنجاكا

وأخذته أخذ العزيز ولم تخر

منك العزيمة عندها حاشاكا

لا حول عندك لا ، ولا لك قوة

لكن رب الناس قد قواكا

غالبته فغلبته صعدا إلى

حيث استجاب السامعون نداكا

(تبت يدا) الجلف العليوي الذي

للفتك عن بعد الديار أتاكا

خفّت جموع تنظر ما جرى

وجميعهم بالروح قد فاداكا[1]

1. القصيدة بها أكثر من خمسين بيتا نشرت في الشهاب الجريدة عدد83 بعنوان في ذمة التاريخ أفظع حادث يوم 7 شعبان 1345هـ الموافق 10. 02. 1927.

● **عود على بدء:**

ولنعد إلى صاحبنا بوشمال ونذكر مثالا مما لقيه وعاناه في الميدان الصحفي، فبعد ثلاثة شهور فقط من محاولة اغتيال أستاذه ابن باديس ليلا بقسنطينة، تعرض هو للضرب نهارا جهارا من طرف القاضي حشلاف في بلدة "الجلفة"، لا من طرف رجل عادي مجهول وفي الليل البهيم، ولكن في وضح النهار وأمام الملأ من أعيان البلدة، من بينهم الباشاغا ابن عبد السلام.

كانت تلك السنة الثانية من عمر"الشهاب" كما أسلفت، التي ابتلي فيها أصحاب الشهاب وزلزلوا زلزالا شديدا، أصيبوا في أبدانهم وأعراضهم وأموالهم، تنكرت لحركتهم التهذيبية الحكومة وأذنابها، وتنمرت لدعوتهم الإصلاحية الطرقية وأتباعها، وعلى الخصوص الطريقة العليوية ومريدوها.

فما ضعف الإصلاحيون ولا استكانوا، وصبروا صبرا جميلا، وثبتوا كالأطواد لا يفزعهم شيء، ولو كان خصومهم في جموعهم الكثيرة وأموالهم الوفيرة ومنزلتهم الرفيعة عند الحكومة وعند العامة، لو كانوا على شيء من الحق لقضوا على هذه الزمرة القليلة الناشئة من المصلحين في أمد قريب. لكن الله - والحمد له والشكر- يحق الحق ويبطل الباطل، ويدافع عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وينصر من نصره إن الله لقوي عزيز(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّه يَنْصُرْكُم ويُثَبِت أَقْدَامَكُم). فذهب إفك الأفاكين وفتك الفتاكين هراء في الهواء، ورجعوا بالخيبة والعناء خاسرين، وثبت "الشهاب" نجما ساطعا يهدي السائرين سواء السبيل

في ليل الاستعمار وظلام الجهل وغبش الطرقية، يزيد قراؤه ومشتركوه ولاينقصون، وتنتشر دعوته انتشار شعاع الشمس في الصباح، بينما تتهاوى الكتل الطرقية والحكومية ويتنازعون أمرهم بينهم، وتضعف دعوتهم ويتناقص أتباعهم ومريدوهم أمام الحق الواضح الجلي، وإذا كان لذلك من سبب فهو قوة الإيمان والثقة بالله وصدق الدعوة والإخلاص فيها لله.

لعل الذي أثار حفيظة القاضي وألهب غضبه، وجعله ينتقم من مندوب"الشهاب" لتلك النواحي أمام الناس بتلك الطريقة الرعوية، والرعونة البدوية - دون الرعاية لمقام القاضي ومنصبه السامي، ومكانته في الشرع الإسلامي، وعند الرأي العام حتى العامي- مقال نُشر في "الشهاب" وفيه عبارة "حَشْلَف ياحشلاف" ولعل القاضي يعتقد أن كاتبه هو بوشمال نفسه أوانتقم من "الشهاب" في شخص مندوبه "بوشمال" بدل أن يقابل الحجة بالحجة، ويحارب عدوّه بنفس السلاح الذي حاربه به.

تركت حادثة ضرب بوشمال في"الجلفة" من طرف قاضيها وأمام الملأ من أهلها أثرا أليما في نفس الشيخ ابن باديس لأن المعتدي يحتل منصبا دينيا خطيرا في المجتمع الإسلامي، وأمام الباشاغا الذي يمثل أعلى سلطة في البلدة[1].

1. لأحمد بوشمال مقال طويل في(الشهاب الأسبوعي) عدد 87 بتاريخ 6 رمضان 1345هـ الموافق ليوم 10 مارس 1927 تحت عنوان:(عجز عن القول فاضطر إلى الضرب شان الأوباش) صور فيه الحادث ووصف بعض من حضرها.

فعلّق صاحب الشهاب على ذلك بقوله:

((... يسوءنا - والله- أن يكون في هيئة القضاء المحترمة من تنحط تربيته إلى هذا المقدار، وإن كنا نعلم شذوذ هذا الرجل فيها بهذه الأخلاق "السافلة"، وما كنا لنُشرّفه بالمقالة ولا بالملامة كالأحرار من الرجال- وهو من أهل الضرب والعصا- لولا أنه رجل دفعته غيرته المرابطية وهمّته الطرقية "والحكومية" فدخل ميدان الكتابة والتأليف أيضا!!

...فتمسك به أولئك الغرقى "السادرين في خيالاتهم وأوهامهم" الذين يتمسكون بخيوط الخيال. وتبجحت به تلك الفئة التي ترى فخرها وانتصارها في كل كويتب ونُويظم "متشاعر" يضرب على نغمتها ويكثر سوادها، فرفعت أصواتها منوهة به وبكتاباته الخرافية التي وجدت فيها الضالة التي كانت تنشدها... فوجب علينا بعد هذا كله أن نذكر هذه الواقعة، ليعلم من ينظر الأمور بعقل وإنصاف مقدار من تنتصر به تلك الفئة، ومقدار تحري كاتبها في مقالاته، وإن القوم ليلتجئون لأيديهم عندما تعجز ألسنتهم، ابتداء من جانيهم العليوي "الآثم" إلى قاضيهم الحكومي الطرقي"الظالم"..[1])).

هذا بعض ما جاء في تعليق الشيخ ابن باديس على حادث ضرب بوشمال في"الجلفة" من طرف ذلك الجلف المندس في سلك القضاء الشرعي المفروض فيه أن يكون عادلا منصفا، ونزيد عليه هذه الملاحظة القصيرة فنقول: إذا كان "لكل اسم من مسمّاه نصيب" كما تقول العرب،

---

1. الشهاب الأسبوعي عدد 76 بتاريخ 26. 12. 1926.

فهذا القاضي "حشلاف" وكل ما كتبه "حشلاف في حشلاف ما في ذلك خلاف" وإن زيّنت صدره نياشين العلم والافتخار الفرنسية التي تعطى بالجزاف.

كتب الشيخ أبو يعلى الزواوي الإمام السلفي في جامع "سيدي رمضان" بالعاصمة - وهو رجل محايد لا يتعصب للمصلحين ولا للطرقيين بل حاول الإصلاح والتوفيق بينهما ما أمكن بالكتابة في صحف هؤلاء وأولئك وفشلت مساعيه ولم ينجح- مما جاء في مقاله الطويل قوله:

((... نعذر أصحاب "الشهاب" في واحدة بالخصوص، وهي تكرار الاعتداء عليهم، الذي لا يقره ولا يقبله إلا من لا خلاق له ولا عقل، وإنه لدليل التوحش والهمجية... لا نعذر أهل العلم عموما وأهل الجرائد بالخصوص كأصحاب "النجاح" الحكومية، وأصحاب "البلاغ" الطرقية العليوية الذين لم يقوموا ولم يقعدوا، ولم يبدوا ولم يعيدوا شيئا في هذا الحادث الأليم، بل سلكوا مسلك المتفرج المتشفي...إنهم أصحاب جرائد كأصحاب الشهاب، لهم مخالفون يكادون يسطون عليهم فلا يأمنون ذوي بغي، كان عليهم أن ينتقدوا هذا السلوك "الشائن" والفعل الفظيع...

وإن ما جرى لمتصرف الشهاب الشاب أحمد بوشمال يجري عليهم مثله، إذ مثل النظير النظراء، هذا ما أنتقده انتقادا مرا ولا أقبله بحال من أصحاب "النجاح" وأصحاب "البلاغ"...الخ.

• العمل بالمثل:

وإذا لم يكن لخصوم الإصلاح من سلاح سوى القتل والاغتيال والضرب، كما فعلوا مع ابن باديس وبوشمال، زيادة عن النيل منهما ومن أتباعهما بالسبّ والشتم والولوغ في أعراضهم بغير حق، فلماذا لا يكون لهؤلاء المظلومين شيء من ذلك السلاح يستعملونه مع أولئك الأوباش والأجلاف؟! الذين لا يعرفون سوى هذا الأسلوب لردعهم وتوقيفهم عند حدهم.

أما ابن باديس فلا يمكن أن يصدر عنه مثل ذلك، ولا يقابل السفه بالسفه. وأما أحمد بوشما فقد فكر في ذلك كثيرا وهو يعلم أن مقابلة أولئك الخصوم بمثل أسلحتهم لا يرضى به أستاذه ابن باديس ولا هو من مبادئ جريدة "الشهاب". ولكنه اضطر مرة إلى استعمال ذلك ضد زميل له في الصحافة هو مامي إسماعيل محرر جريدة "النجاح" التي كانت إصلاحية في أول عهدها وكان ابن باديس يكتب فيها، ثم انقلبت وصارت ذات نزعة حكومية تناصر الطرقية والرجعية ضد الحركة الإصلاحية، وبلغت بصاحبها الوقاحة إلى النيل من سمعة ابن باديس أستاذه وصاحب الفضل عليه في تعلمه، فسخر مامي من شيخه، واختلق على لسانه أخبارا وروايات سفيهة بذيئة، فلم يتمالك بوشمال لمّا بلغ السيل الزبى وطفح الكيل، حتى هجم ذات يوم سنة 1928 على مامي إسماعيل وقد ظفر به في نهج تجاري مزدحم بقلب مدينة قسنطينة وعلاه بدبزة، ظهر أثرها من بعد في وجهه كالخبزة، وأعطاه "طريحة مليحة" كما يقولون في قسنطينة بمرأى ومسمع من الناس، حُوكم بعدها بوشمال وحكموا

عليه بأربعمائة فرنك في ذلك الوقت السحيق عقوبة له على عدوانه على ذيل عميل للحكومة وأنصارها من الطرقيين. وكانت هذه الواقعة البوشمالية كافية لكف مامي إسماعيل عن الولوغ في عرض ابن باديس وصحبه، فلم يعد لسبهم وشتمهم.

وأما العمودي والزاهري ومن جاراهما فقد قابلوا جريدة "المعيار" العليوية ذات اللون الأخضر السفيهة البذيئة بسفه آخر بديع فظيع، وبذاءة أقذع وأفظع. فكوّنوا جريدة "الجحيم" بلون أحمر للرد على سفاهة "المعيار" ومعايرتها السخيفة المنحطة، ولكن بأسلوب الأدباء الماجنين. وقالوا عن جريدتهم "الجحيم": "إنها تتنفس مرة في الأسبوع يحررها شبان الزبانية شعارهم العصا لمن عصى" فكالوا لها بصاعها صاعين، وخاطبوها بلغتها وجروا معها في سفاهتها وفي ميدانها هذا، فظفروا بها وانتصروا عليها، وأحرقت الجحيم المعيار وأصحابه (ولَمَن انْتَصَر بَعْد ظُلْمِه فَأُولَئِك ما عَلَيْهِم مِنْ سَبِيل) صدق الله العظيم[1].

وكذلك فعلوا مع الجرائد الأخرى المتحاملة على المصلحين من قبل ظهور"المعيار" مثل جريدة "النجاح" الحكومية و"البلاغ" الطرقية العليوية وأصحابهما من القواد"جمع قايد" والأغوات"جمع آغاوباش آغا" ومن جاراهم من سلك القضاء والإفتاء والطرق والزوايا، فقابلوهما بما يليق بهم من سباب وشتم واختلاق أخبار وروايات، كما كانوا هم يفعلون بالمصلحين وشيوخهم، والجزاء من جنس العمل وكما يدين الفتى يدان،

1. الآية 41 من سورة الشورى.

والبادئ أظلم. هكذا حمل الوادي فطّم على القرى، وكان ابن باديس يتبرأ من"الجحيم" وأصحابها ويقول: نحن لسنا سفهاء حتى نقابل السفه بالسفه.

• الشيخ المفتي في حلبة الصراع:

أحرقت"الجحيم" تلك الأوراق الذابلة التي تعبث بها رياح الفتنة والتعصب وأهواء الحقد والضغينة. ومن طريف ما أذكر عن جريدتي "الجحيم" و"المعيار" بالخصوص أن مفتي قسنطينة الذي ضاق ذرعا بجريدة "الجحيم" بعد شهرين من ظهورها، فدعا إلى اجتماع عام للمسلمين لإطفاء نار"الجحيم". فأعلن للجمهور أن اجتماعا عاما سيعقد غدا في الجامع الكبير"بعد العصر فيما أظن"، ويرجو من الناس الحضور بكثرة ليكلمهم في شأن جريدة سفيهة ملعونة ظهرت تتكلم في أعراض أفاضل الناس وأولياء الله الصالحين وتنشر الفتنة في المجتمع، لنقدم طلبا للحكومة باسمكم لتوقيف هذه الجريدة الملعونة!.

وبمجرد ما انتشر الخبر في المدينة قام السيد عمر بن السقني من قسم الشبان في "جمعية التربية والتعليم الإسلامية" فجمع بعضا من أصحابه الذين يشاطرونه الرأي واشتروا أعدادا من جريدة "المعيار" ذات اللون الأخضر لون الجنة وقال لهم: نحضر غدا هذا الاجتماع الذي دعا له الشيخ المفتي ومع كل واحد منا عدد من هذه الجريدة الخضراء اللون، ونتوزع في صفوف الجامع قبل الوقت المعلوم، فإذا لم يذكر المفتي "المعيار" ولم يشر إليها واكتفى بالتشنيع على "الجحيم" فقط، وقفنا كلنا ونشرنا الجريدة الخضراء، وقلنا وهذه يا شيخ؟ لماذا لم تذكرها؟ وهي البادئة بالظلم

والبادئ أظلم؟ أنت غير منصف يا شيخ أنت غير عادل. فلما حان الوقت وتكلم الشيخ المفتي عن "الجحيم" وسكت عن "المعيار" وقف أولئك الشبان في أماكن مختلفة من الجامع ونشروا الجريدة الخضراء وصاحوا في وجه الشيخ: وهذه الملعونة الأخرى يا شيخ لماذا لم تذكرها؟ وهي التي ظهرت قبل الجحيم بشهور وهي البادئة بالسفه والظلم والعدوان على علمائنا وأئمتنا، لماذا لم تتكلم عنها وتطلب توقيفها هي أيضا؟ أنت غير منصف يا شيخ أنت غير عادل فبُهت الشيخ ولم يجد ما يقول، وكثر الهرج والمرج، وتعالت الأصوات: أنت غير منصف أنت غير عادل أنت...أنت.. إلخ، وخاف الشيخ ومن معه فالتجأوا إلى مقصورة الإمام فرارا من غضب الشعب وثورته، وأغلقوا الباب عليهم.

وربما وقع مثل هذا أو قريب منه مدن أخرى من مفتين آخرين أو أئمة أوشخصيات أخرى في السلك الديني أوالحكومي، وهما صنوان متعاونان يوحي بعضهما إلى بعض زخرف القول غرورا.

- **وأخيرا هذا بوشمال خارج الصحافة:**

أما خارج ميدان الصحافة فبوشمال كان ينوب عن الشيخ ابن باديس في كل المشاكل التي تعرض له ويريحه من كل أموره الخاصة والعامة ليتفرغ الشيخ لما هو أهم وأعظم كالتعليم الذي وهب حياته كلها له ويستغرق معظم أوقاته، وكذلك البريد الذي يرد عليه من الداخل والخارج ويجيب عليه وعلى ما فيه من استفتاءات واسترشادات ونحوها، ويقرأ الصحف ويرد عليها إذا لزم، ويحرر المقالات الإضافية والبحوث القيمة في صحفه أو في صحف الجمعية ويستقبل الضيوف في أوقات قليلة معينة.

وكما تقدم لنا فقد شارك بوشمال شيخه في جميع مشاريعه كالمنتقد والشهاب والمطبعة الإسلامية الجزائرية، وجمعية التربية والتعليم وكان بوشمال رئيس قسم الشبان في هذه الجمعية، ولما توفي الشيخ الذي كان يرأسها أسندت رئاستها إلى بوشمال حتى وفاته.

وكما كان بوشمال محل ثقة ابن باديس في حياته، كان كذلك محل ثقة خليفته الشيخ البشير الإبراهيمي وإخوانه المشايخ: الميلي والتبسي وخير الدين...إلخ يعتمدون عليه كلهم ويستشيرونه في شؤون الحركة الإصلاحية بمدينة قسنطينة خاصة، وإلى رأيه يرجعون في تأسيس الجمعيات والمدارس والشُّعب والنوادي لخبرته الواسعة في هذه الأمور لذلك انتخبوه عضوا في المجلس الإداري لجمعية العلماء سنة1946 في عهد رئاستي الشيخين: الإبراهيمي والتبسي، فقام بتنظيم شؤونها المالية مع خير الدين ثم مع عبد اللطيف سلطاني.

وعندما أسست الجمعية "معهد ابن باديس" بقسنطينة سنة1947 قام بوشمال بالدور الأكبر في تحقيق المشروع، ثم في تكوين دارالطلبة التي دشنت عام 1953 للنظام الداخلي لطلبة المعهد، وتولى بوشمال مهمة المقتصد فيها.

وفي أيام الإضراب الذي أعلنته الجبهة وجيش التحرير في الثورة ودام أسبوعا كاملا- أواخر سنة 1957- بقي بوشمال مرابطا في دار الطلبة مع التلاميذ يرعاهم ويشرف على حياتهم المادية والأدبية ويراقب تحركاتهم حتى نهاية الإضراب. وترك منزله وأهله في ضاحية "سيدي مبروك" بلا راع، لأن هؤلاء الطلبة غرباء ولا ولي لهم سواه فكفلهم ورعاهم وحماهم مما

قد يبدو من نزق الشباب والمراهقة وظروف استثنائية عسيرة.

وسخر بوشمال "مطبعة الشهاب" لخدمة الثورة سرا ، وكان يحمد الله ويشكره أن عاش حتى رأى مطبعة ابن باديس تقوم بخدمة الثورة الجزائرية لتحقق غرضا من أغراض الشيخ أو حلما من أحلامه. وبقي بوشمال يمارس أعماله السرية في خدمة الثورة خصوصا مع اثنين من مسؤوليها في قسنطينة: "صالح بوذراع" المعلم في مدرسة التربية والتعليم، ومساعده "مسعود بوجريو" المعلم في مدرسة سيدي مبروك حيث يسكن بوشمال. ومسعود هذا هو مسؤول الكشافة الإسلامية إذ ذاك هناك، وكلا المعلمين كان على رأس الحركة الفدائية بقسنطينة وضواحيها حتى استشهدا.

وبوشمال كان مشبوها لدى السلطات الاستعمارية ومُتَّهما بصلته بالثورة فاعتقلوه أول مرة يوم17 أوت1957 ولم يتفوّه بما يفيد العدو، ولاوجدوا عنده ما يدينه، ولا شهد عليه أحد بشيء فأطلقوا سراحه. وهو الحذر الذكي الواعي بخطورة الظروف ولذلك كان يتصرف بحكمة وروية وحذر، وبقي مشبوها متهما فاعتقلوه من جديد في ربيع سنة1958 وأطلقوا سراحه لأنه لم يثبت عليه ما يدينه.

ثم اعتقل المرة الأخيرة يوم 13 سبتمبر1958 وكان ذلك آخر العهد به. وقد بلغنا أنه عُذب عذابا منكرا في الاستنطاق ولم يظفروا منه بطائل، وبالغوا في تعذيبه عساهم ينالون منه ما يثبت إدانته فلم يفلحوا.

وبلغ ببوشمال العذاب أقصاه حتى تمنى الموت ولا ذلك العذاب، فكان يُغلظ الكلام لجلاديه يسبهم ويشتم دولتهم وحكامهم ويستفزهم بذلك

ويبصق في وجوههم ليدفعهم إلى قتله والقضاء عليه ليستريح من عذابهم، وهو ما فعلوه أخيرا لما يئسوا منه، ولم يظهر له أثر بعد ذلك. فكان مصيره مجهولا كمصير الشيخ العربي التبسي مدير المعهد والرئيس الثاني لجمعية العلماء، وإن كان هذا أخذ في العاصمة وعذب فيها وأعدم، وكمصير الشيخ الفقيه محمد العدوي المدرس بالمعهد، ومصير الأديب القاص اللامع أحمد رضا حوحو الكاتب العام للمعهد، والمجاهد الشاب المدرس بالمعهد محمد الحفناوي الذي حمل السلاح ولحق بالمجاهدين حتى استشهد.

هؤلاء جميعا من أسرة معهد ابن باديس وقد يكون هناك غيرهم من طلبة المعهد مثلا أو غيرهم لا أعرفهم أخذوا وعذبوا وأعدموا، ولم يُعرف لرفاتهم مكان ولا لوفاتهم زمان مثل كثير غيرهم هنا وهناك في حرب التحرير الجزائرية رحمهم الله وأثابهم، والمجد والخلود للشهداء.

هكذا قدّم معهد ابن باديس أبطالا للشهادة كهؤلاء، وقدّم أساتذة ومعلمين وطلابا آخرين كثيرين للفداء، فلقوا الله في ميدان الشرف واستشهدوا في أماكن مختلفة من الوطن. كما قدم أبطالا للجهاد والنضال في ميادين عسكرية أو مدنية لجيش التحرير أو جبهة التحرير بلغوا المناصب العليا في القيادة والريادة مازال بعضهم أحياء يرزقون. - رحم الله الشهداء، وزاد الأحياء شرفا ورفعة - .

شاعر العروبة والإسلام

محمد العيد آل خليفة

(1979-1904)

محمد العيد آل خليفة

• تعريفه:

ولد محمد العيد بن محمد علي بن خليفة يوم 28. 08. 1904 ببلدة "عين البيضاء" من ولاية أم البواقي اليوم في شرقي الجزائر، وهو في الأصل من قبيلة المحاميد المعروفة بالمناصير في سوف.

في عين البيضاء حفظ القرآن وتعلم الدروس الابتدائية في مدرستها الحرة العربية على الشيخين: الكامل بن عزوز وأحمد بن ناجي.

في سنة1918 انتقل مع أسرته إلى مدينة بسكرة، وبها تلقى مبادئ العلوم العربية والإسلامية على الأساتذة: علي بن ابراهيم العقبي ومختار بن عمر اليعلاوي، والأدب والعروض على الجنيدي أحمد مكي.

في سنة1921 التحق بجامع الزيتونة في تونس، ودرس فيه سنتين فقط ثم عاد إلى بسكرة واتصل بداعية الإصلاح الشيخ الطيب العقبي الذي عاد من الحجاز أخيرا فلازمه واستفاد منه.

وشارك محمد العيد في النهضة هنالك بالتعليم والنشر في الصحف الوطنية: "صدى الصحراء" والإصلاح ببسكرة و"المنتقد" و"الشهاب" بقسنطينة.

في سنة 1927 دعي إلى العاصمة للتعليم وإدارة "مدرسة الشبيبة الإسلامية" بها لمدة12 سنة، وأثناء ذلك شارك في تأسيس جمعية العلماء عام1931، وكان يحضر اجتماعاتها العامة ويلقي قصائده فيها وينشر

شعره في صحفها وصحف رجالها: ابن باديس والعقبي وأبي اليقظان والزاهري وعبابسة محمد الأخضري.

في سنة 1940 - والحرب العالمية الثانية قائمة على قدم وساق- عاد إلى بسكرة ومنها دعي إلى إدارة "مدرسة التربية والتعليم الإسلامية" بمدينة باتنة حتى أغلقتها السلطة عام1947، فدعي إلى الإشراف على "مدرسة العرفان" بعين مليلة.

وبعد اندلاع ثورة التحرير في نوفمبر1954م، والتحاق بعض معلمي المدرسة ورجالها بالثورة، فأغلقت المدرسة وألقي القبض على مديرها محمد العيد وسجن، وبعد إطلاق سراحه وعودته إلى بسكرة، فرضت عليه الإقامة الجبرية بها، فلبث معزولا عن المجتمع إلى أن فرج الله عليه وعلى الجزائر بالاستقلال.

في سنة1972 انتخبه مجلس "مجمع اللغة العربية بدمشق" عضوا مراسلا في الجزائر، وأخبره بذلك الأمين العام للمجمع الدكتور شكري فيصل بكتاب في23. 05. 1972م.

وبتقدم أديبنا في السن اعتزل الحياة وزهد فيها، وكان يقضي الخريف والشتاء في بسكرة، و الربيع والصيف في باتنة.

ولقي الله الكريم في الشهر العظيم رمضان يوم السابع منه 1359هـ(1979.7.31م) ببسكرة ودفن بمقبرة "العزيلات" - تغمده الله برحمته ورضوانه- .

• مفتاح شخصيته:

قدم الشيخ البشير الإبراهيمي محمد العيد في الاحتفال بتكريم الشيخ عبد الحميد بن باديس في كلية الشعب بقسنطينة بمناسبة ختم الشيخ لتفسير القرآن، فقال[1] "الأستاذ محمد العيد شاعر الشباب وشاعر الجزائر الفتاة، بل شاعر الشمال الإفريقي بلا منازع.

شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذهن رحب الخيال، متسع جوانب الفكر، طائر اللمحة، مشرق الديباجة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسج ملتحمه، مترقرق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها، بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقق في مفردات اللغة علما وعملا، وقاف عند حدود القواعد العلمية، محترم للأوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها، لا تقف في شعره على كثرته على شذوذ أو رخصة أو تسمح في قياس، أو تعقيد في تركيب، أو معاظلة في أسلوب، بارع الصنعة في الجناس والطباق وإرسال المثل والترصيع بالنكت الأدبية والقصص التاريخية.

ومن يعرف محمد العيد ويعرف إيمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره إنما هي من آثار صدق الإيمان وصحة التخلق، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء.

---

1. مجلة (الشهاب) عدد الختم، الجزء الرابع المجلد الرابع عشر ص 268 عدد شهري ربيع الثاني وجمادي الأولى 1357 ه، وجوان وجويلية 1938م.

رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من آثارها القصائد الغر، والمقاطع الخالدة، فشعره لو جمع سجل صادق لهذه النهضة، وعرض رائع لأطوارها.

وقد سمت نفسه في العهد الأخير إلى الشعر الفلسفي وتظهر فيه عدة مقطوعات لزومية رائعة نشر القليل منها.

وإذا كان في النهضة العلمية الأدبية بالجزائر، نواحي نقص، فمنها أن يبقى شعر محمد العيد غير مجموع ولا مطبوع"[1].

محمد البشير الإبراهيمي

---

1. طبع ديوان محمد العيد بعد ذلك الوقت بنحو ثلاثين سنة في حياة صاحبه طبعة أولى عام 1967، ثم أعيد طبعه طبعة مصورة سنة 1979م، ولم يجمع فيه جميع شعره، وهناك تكملة لديوان محمد العيد قام بجمعها وتقديمها الأستاذ محمد ابن سمينة الأستاذ بجامعة الجزائر سنة 1997 طبعت على حدة بدار الغرب الإسلامي ببيروت في 160صفحة.

• مكانته الشعرية:

وقيمة محمد العيد الشعرية بالخصوص - رغم من أنكرها من بعض الجزائريين المعاصرين ممن يعتبرون تلاميذ له- لم يبلغها شاعر في القديم ممن عاشوا في الجزائر من أبنائها كابن خميس التلمساني أو بكر بن حماد التاهرتي أو ابن الفكون القسنطيني. أوممن طرأوا عليها وأقاموا فيها كابن هانئ الأندلسي وابن حمديس الصقلي. ولا بلغها شاعر في الحديث ممن تقدّموا شاعرنا وعاشوا قبله بقليل ويعتبرون مشائخ له في الشعر مثل: عاشور الخنقي وابن الرحمن الديسي وأحمد الوعوني وغيرهم. أوممن عاصروه وعاشوا مثله في بلادهم في نفس الظروف والملابسات، ويعتبرون زملاء له في الشعر مثل: مفدى زكرياء وأحمد سحنون وجلول البدوي والخضر السائحي، وإن كان لكل منهم منزلته ومزيته، ولكل اتجاهه وطابعه أو مذهبه في الشعر. ومقامه المحمود فيه.

فمحمد العيد أشعرهم جميعا لأنه أصدقهم في التعبير عن حياة المجتمع الجزائري وعما يجيش في نفوس شعبه من آمال وآلام، وهو الذي واكب شعره نهضة أمته طيلة نصف قرن في جميع مراحل حياتها تجاوب معها، وتفاعل وإياها، فسجل عواطف وأحاسيس شعبه في كل التطورات والأحداث التي مرت بالجزائر، صاغها في صور شعرية رائعة لا ينكرها سوى عديم الذوق، أومن لم يكن له إلمام بالبلاغة والبيان العربي، أو من كان في نفسه شيء حيال شاعرنا.

وديوان محمد العيد المطبوع - ولو لم يجمع جميع شعره- هو سجل هام عام لنهضة الجزائر الفكرية والثقافية والاجتماعية، وعرض رائع

لأطوار حركاتها الوطنية والإصلاحية، وصورة صادقة معبرة عن نفسية الشعب وطموحاته، في تلك المرحلة الحرجة من حياته، فهو الشاعر الوحيد من بين شعرائنا الذي انقطع متطوعا لخدمة أمته وبلاده بشعره في إخلاص وتفان وبصدق ونزاهة لا يشوبهما ولا يكدرهما شيء، لا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكورا، ولو بحثنا عن حظه الذاتي في شعره كشاعر وكبشر، لما وجدنا غير النزر القليل الذي لا يكاد يذكر أمام حظ أمته وبلاده، فهو في بدع في الشعراء. من ذلك مثلا أنه لم يمدح أحدا من ذويه ومعارفه، ولم يرث أحد من أقاربه لا الوالدين ولا الأبناء أو الإخوة على حبه لهم وتقديره واحترامه لهم واعتزازه بهم. ولا مدحهم أو شكرهم بشعر. وكانوا من أعز الناس عليه، وتأثر لكل من مات منهم. تماما كما كان ابن باديس والابراهيمي وغيرهما من إخوانه ومشائخه من قادة وأئمة النهضة الجزائرية في الصبر والكفاح وفي الثبات والصمود والتجلد لنوائب الدهر ومصائب الاستعمار، لا يهتمون كثيرا ولا يحفلون بما ينالهم في أنفسهم أو يصيب أقرب الناس إليهم وأعزهم عليهم في فرح أو ترح. ولكنهم يهتزون لما يلحق العاملين المخلصين من أمتهم فيشيدون بمواقفهم، ويدافعون عنهم وينافحون، بكل ما أوتوا من قوة، ويشاركونهم في أفراحهم وأتراحهم بالفعل وبالقول. كذلك كانوا وكان محمد العيد لشعبهم وبلادهم أكثر مما هم لأنفسهم وذويهم.

• الألقاب التي أعطيت له:

لكل ذلك جاز أن يعتبر محمد العيد بحق وصدق "صوت الجزائر" وبلبلها الصداح، كما اعتبره المستشرق الألماني الدكتور ويلهيلم هوينرباخ وهو أول من أعطاه هذا اللقب أو النعت، وهو محق في ذلك، بعد أن كان أصدقاء شاعرنا من زملائه ومشائخه ينعتونه بشاعر الشباب كلما نشروا له شعرا أوقدموه لإلقاء شعر، ثم بشاعر الجزائر أو بشاعر الشمال الإفريقي أوالمغرب العربي، وهنالك من أضفى عليه إمارة الشعر العربي، فقد كان أمير البيان العربي وشيخ الأدباء عندنا العلامة الابراهيمي نعته مرة بأمير شعراء الجزائر، ووافق على ذلك بعض أدبائنا ومنهم الأستاذ الشاعر حمزة بوكوشة الذي يقول في ختام قصيد له طويل نشر في الشهاب:

دم للجزائر شاعرا ❖ متسنما عرش النظيم
أنت الأمير حقيقة ❖ وأنا بذ لكم الزعيم[1]

وأنا أذهب إلى أبعد من ذلك وأقول إنه شاعر العروبة لأن شعره لم يكن خاصا بالجزائر وحدها كما قد يفهم من كلامي السابق، أوكما قد يفهم من لم يطلعوا على شعره كله فقد واكب شعره الحياة العربية وسايرها وتأثر بها وتفاعل معها في أهم أحداثها و مختلف قضاياها في أواسط هذا القرن، وخصها بقصائد رائعة في أفراح الشرق العربي وأفراحه من الخليج العربي إلى المغرب العربي، وعلى الخصوص مأساة فلسطين قلب العالم العربي الدامي.

---

1. مجلة (الشهاب) ج (7) م(12) ص 224و225.

وشعر محمد العيد إلى جانب تصويره للحياة الجزائرية تصويرا مفصلا، هو كذلك وفي نفس الوقت صورة حية صادقة لأهم المراحل التي اجتازتها الأمة العربية في مشرقها ومغربها، لا نكاد نعثر له على قصيد أونشيد حتى ولو كان خاصا بموضوع جزائري بحت، لا يشير فيه لما يماثله أو يقاربه في أي وطن من بلاد العرب. فالأمة العربية دائما وأبدا في باله وفي شعره يشيد بآثارها وأمجادها، ويبارك خطواتها في سبيل التحرر، ويأسو جراحها الدامية، ويهنئ الناجح المظفر ويدعوه إلى المزيد من اليقظة والنجاح والتقدم.

ولو فكر العرب اليوم في إعطاء لقب شاعر العروبة لأحد شعرائهم المعاصرين الأصلاء المتمكنين من الثقافة العربية الأصيلة، المهتمين بالشؤون العربية، لما وجدوا أحسن ولا أجدر بهذا اللقب من محمد العيد آل خليفة، الذي ينطبق عليه تمام الانطباق، ولعله الوحيد الذي تثقف بالعربية وحدها ونبغ فيها وصار من أفذاذ شعرائها، دون أن يكون له حظ أو تأثر بغيرها من الثقافات الأجنبية، ولم يتلقح بأي لقاح آخر غير عربي، كما تلقح كثير غيره من شعراء العربية اليوم، فهو الشاعر العربي القح الصريح الفصيح في لغته وبيانه، الذي لم ينهل من غير الموارد العربية الصافية قديمها وحديثها، التي لم يشبها أو يكدرها شيء أجنبي عنها.

ويصح أن يعتبر ديوانه ديوانا عربيا أيضا لكثرة ما فيه من القضايا العربية الكبرى والصغرى تخصيصا أو تضمينا في مختلف أوطانها. ولايخدش شعره أويعيبه أنه عمودي كلاسيكي على بحور الخليل وأوزانه وقوافيه، وليس فيه من الشعر الذي يدعونه الشعر الحر أوالشعر المنثور

أوالنثر المشعور الذي لا يتقيد بموازين وقوانين الشعر العربي وقوافيه، أولا يحترمها. فذلك دليل على أصالة شعر محمد العيد واحترامه لأحكامه ولقواعد اللغة العربية، البصير بمختلف استعلامات البلغاء، لانجد في شعره على كثرته شذوذا أوترخصا أوتسامحا في قياس أوتساهلا في شأن من شؤون البيان العربي.

• الشاعر محمد العيد صوت الجزائر[1]:

لم يستهدف الشعب الجزائري في كفاحه تحرير الوطن من الاستعمار السياسي فحسب بل وتحرير نفسه من الاستعمار الثقافي.

ففي الوقت الذي كان المجاهدون البواسل يحملون راية الثورة المسلحة، كانت هنالك فئة من العلماء والأدباء والشعراء تحمل راية العلم والأدب والشعر.

فالتاريخ الذي سيخلد أسماء هؤلاء الأبطال الذين قدموا أنفسهم قربانا للواجب، سيخلد جنبا إلى جنب أسماء أولئك الرجال المفكرين ويسطرها بحروف من نور على صفحاته الأبدية مثالا طيبا وقدوة حسنة للأجيال القادمة.

وإنه ليسرني أن أتحدث إليكم اليوم عن شخصية من هذه الشخصيات التي ستحتل مكانا بارزا في التاريخ العربي في الجزائر ألاوهي شخصية الشاعر محمد العيد.

---

1. محاضرة للمستشرق الألماني الدكتور ويلهيلم هوينرياخ من جامعة كيهل الألمانية، ألقاها في الجزائر بدعوة من معهد(غوتة) بمدينة الجزائر 1973.

لقد لعب هذا الشاعر دورا مهما في عالم الأدب العربي، وبزغ اسمه في سمائه، وشارك في وضع الحجر الأساسي لحاضره ومستقبله في الجزائر.

ولا نريد المغالاة إذا قلنا بأننا نعد إنتاجه الشعري نقطة تحول لأدب عربي حديث في الجزائر، هذا الأدب الذي بدأت نهضته منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي[1] ومن المؤسف حقا أن تذهب نصوصه الأولى وخاصة ما أنتجته قرائح الشعراء الذين عاصروا شاعرنا هذا من أمثال أحمد سحنون وغيره، ضحية للتلف والإهمال والنسيان بحيث أصبح من المتعذر على الباحث في الوقت الحاضر القيام بدراسة شاملة للشاعر نفسه ومقارنته بشعراء عصره وكيف يستطيع الباحث هذا، وديوان محمد العيد نفسه المتكون من جزأين[2] لم يطبع حتى إعداد هذه المحاضرة؟ لم يصلني خبره إلا قبل أسابيع، وقد تضمن ديوانه: أدبيات وفلسفيات وإسلاميات وقوميات وأخلاقيات وحكميات واجتماعيات وسياسيات ولزوميات وإخوانيات وثوريات ومرائي وذكريات متفرقات وألغازا وأخيرا أناشيد.

لقد كان ضياع النصوص بصورة عامة سببا مساعدا ومؤيدا لقول القائلين: "بأن الجزائر خالية من الأدب العربي".

---

1. لعله يريد القرن العشرين لأن محمد العيد ومعاصريه من نوع أحمد سحنون من مواليد أوائل القرن 20.
2. من أين له هذا والديوان لم يطبع بعد ولم يعرف حينئذ؟ ثم لما ظهر كان جزءا واحدا! لعله يشير إلى الديوان المخطوط الذي جمعه تلميذ الشاعر وراويه الأخ محمد بوعدو الذي قسمه إلى جزأين.

وهـذا مـا نقـرأه في بحـث الأدب العربـي الحـديث للعلامـة الروسـي كراكـو فيسكي حيث يقـول: "إنـه وإن كـان مـن المـستغرب حقـا أن الجزائر لم تنتج في هذا المضمار شيئا ، فقد شغلت نفسها بالتقليد السريع لمظاهر الحضارة الأوربية ولم تعتز بلغتها وآدابها"[1].

لقد انقطعت الجزائر عن العالم الخارجي أعواما عديدة ، وكادت أن تنعـزل عنـه انعـزالا تامـا ، وبـذل المـستعمرون قـصارى جهـدهم في إخمـاد صوتها وإطفاء نورها.

فإذا قلنا بأن الجزائر كن ينقصها مركز لتطوير الشعور الوطني والقـومي، فـلا يعـني هـذا نـشاطها الثقـافي ولا يـدل علـى تكاسـلها وعـدم مقـدرتها الأدبيـة والفكريـة. فلقـد ظلـت اللغـة العربيـة تـدرس في الجوامـع والزوايـا بـالرغم مـن جميـع المحـاولات لاستئـصال جـذورها وقطـع غـذائها وإماتتها. وكانت القصائد الشعرية تنظم بين الحين والحين، وبغض النظر عن أهميتها الفكرية ، فإن قيمتها تكمن في حفظها للغة العربية وإنقاذها من الاندثار والضياع.

ولكـن هـذا الإنتـاج الـضئيل لم يكـن كافيـا للجزائـر نفـسها فلـم تستطع - والحالة هذه- المشاركة في النهضة الأدبيـة الحديثـة في العـالم العربي، ولم تؤلف ما هو جدير بالذكر، بل اعتمدت في غذائها الروحـي علـى مـا يـصلها مـن مؤلفـات وصـحف عربيـة تفـضلت بـين الحـين والحـين

---

1. الواقع أنه حيل بينها وبين تعلم لغتها فقد حاربها الاستعمار وكاد يقضي عليها واعتبرها لغة أجنبية وفرض لغته الفرنسية.

بنشر بعض القصائد والمقطوعات لأدباء الجزائر.

وفي سنة 1926، وبعد مضي أربع سنوات على تصريح كراكو فيسكي السابق، يكتب محمد الهادي الزاهري لأول مرة كتابه حول شعراء الجزائر في جزئين. هذا الكتاب الذي جمع فيه ما أنتجته قرائح معاصريه من الشعراء الجزائريين قبل التاريخ المذكور بعد سنوات، ويصادفنا في الجزء الأول شاعرنا محمد العيد بكلمة تقدير وثناء على المؤلف وبمنتجات شعرية.

ومنذ وقت قريب بدأت النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر وشقت طريقها العربي، فقد أتحف الدكتور أبوالقاسم سعد الله العالم العربي بمقالاته التاريخية الأدبية المتعددة.

حول الكتاب الجزائريين وأدبهم، وقد أفرد للشاعر محمد العيد كتابا خاصا وعده قائد الحركة الأدبية في الجزائر.

ولا يسعى وأنا أتحدث عن محمد العيد أيضا إلا أن أشكر الأديب الجزائري الدكتور أبو العيد دودو أستاذ اللغة العربية السابق في معهدنا بجامعة "كيهل" وأستاذ الأدب في جامعة الجزائر حاليا على المعلومات القيمة التي زودني بها عن الشاعر.

كما أننا نبارك الخطوات الطيبة التي خطتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع في إصدار المؤلفات الوطنية الجزائرية، وإليها يعود الفضل بإصدارها ديوان الشاعر الجزائري محمد الخضر السائحي "همسات وصرخات".

وتعود إلى شاعرنا محمد العيد الذي لقبه إخوانه الأدباء بأمير شعراء الجزائر، فإن لهذه الإمارة التي ينالها واستحقها بلا منازع أسبابا لا بد لنا من ذكرها هنا كما رآها صديقنا الأستاذ دودو في مقالته الألمانية حول محمد العيد.

- لقد عكف محمد العيد منذ فجر حياته على النهل من عيون الأدب العربي وتراثه الذي يعد مفخرة الشرق، فتعرف على أساليبه وفنونه، واستوعب سر تركيبه ومضمونه، ولم يكتف بذلك بل اتجهت رغبته القوية إلى التعرف على أدب إخوانه شعراء العرب في المهجر وما استحدثوه من فنون في الشعر والأدب، فاستطاع بذلك أن يجعل من ثقافته الشخصية حلقة وصل بين القديم والحديث.

ولما شعر الشعب الجزائري بالخطر المحدق بتراثه الفكري وأعلن سخطه واستنكاره وقف محمد العيد إلى جانبه موقف المساند الذي لايمل ولا يكل، وألهمه هذا الموقف صدق التعبير وحسن التصوير، فأفصح عما في قلبه من عواطف وطنية وآمال اجتماعية تبشر بالتحرير والاستقلال.

وهناك عوامل أخرى وإن عدت سلبية ولكنها استطاعت أن تؤثر على تفكير الشاعر تأثيرا إيجابيا منها: إن أهل هذا العصر ينظمون بصورة تلقائية في مواضيع التصوف وفي الجنة والنار، وفي المسائل النحوية وما شابه ذلك، ومن هنالك تنطلق فكرة التمرد عند محمد العيد ليسد هذا الفراغ الذي تركه له القدر.

- **نماذج من شعره:**

يا نفس

عرفتــك يا نفــس ازهــدي أو ترهبــي

على كل حال مذهبــي فيــك مذهبــي

عــرفتــك نفــســا بالغــرور مريضــةً

قديما فــما تجــدي ضــروب التَّطَبُّــب

مَبـــاءة نـــكـــران وورْد ضــــلالــــةٍ

ومَنبــتَ خُــســـرانٍ ومــهــد تقلُّــبِ

تُريــديــن يا نفــس الحيــاة طليــقــة

وتهويــن أن تلْهَــيْ عليــها وتلــعــبــي

تريــديــن يا نفــس الحيــاة طــويلــة

لتقضــي عليــها مــأربــا إثــر مــأرب

مآرب لا تنفــكُّ تَــتْــرَى كــأنــهــا

كواكب تبدو كوكبا إثر كـوكـب

ذري في الدعــاوي والمُنَــى كــلَّ رغبــة

فمزنُ الدعــاوي و المنى غيــر صــيِّــب

وغُــرِّي بغــيــري لا تغُــريِّ بــعــارف

نظيــري ببــرقٍ من عفــافِــكِ خُلّــَب

فــمــا لك إن شــعَّ الســراب بمهـــمــه

من الأرض يممت الســراب لتشــربــي؟

حسبت شعاع الشمس في الأرض مــوردًا

وما هــو فــوق الأرض غــير التَّلــهُّــب

حسبْتِ شُعاع الشمس فـي الأرض ثابتـــا

وأيَّـــان ما تَغْــربُ بـــه اللشمـــس يغـــرب[1]

هذه جذوة هل لها قابس؟

خاطرها جس من غد واجِـس

في مهب الهــوى نبـتهـا مائـس

ورؤى لونــــها حــالك عـابـس

قد نبا سيفها وكبا الـفـارس

ومنى دونها مهمـــة طامـــس

أبإصلاحها يهمس الهامـــس؟

وجوى في الحشا ناخر ناخـــس

وبإفسادهـا يجـرس الجـــارس؟

وأسى لم يذق مثلــه بائـــس

كلٌّ رأسٍ بها مطرقٌ ناكــس

تلك امرئ شعبـــه نـاعـــس

كلٌّ قلب بها حائر يائـــسُ

نـح على أمَّة حظهـا تاعـــس

فـارع فيها الجَنَى أيها الغـــارسُ

أمـة مجـــدُهــــا دارج دارس

قُل لشعبٍ سجى ليله الـدارس:

1ـ نشرت في الشهاب ج ا مـ 8 سنة 1926. وهي في الديوان ص 288 وبها 43 بيتا من لشعر.

أمة مالها قـائـــــد سـائـــــس

(هـذه جذوةُ هـل لها قابسُ؟)[1]

ابن باديس المفسر للقرآن

بمثلك تعتـــز البـــــلاد وتفـخــر

وتزهـر بالعلم المنيــــر و تزخـــــر

طبعت على العلم النفوس نواشئًـا

بمخْبَرِ صدق لا يُدانيه مخبَـــــرُ

نهجتَ لها في العلم (نهج بـلاغـة)

ونهـج مُـفـاداةٍ كـأنَّك (حيـــــدر)

حبتك عمالات الجزائر حرمـــــةً

مُشرِّفةً عظمـى بها أنت أجـــــدرُ

ففي كل وفد راشـد لـك دعـــوةٌ

وفي كلِّ حفْلٍ حاشـدٍ لك منْبَـــرُ

يَراعُكَ في التحرير أمضي من الظُّبى

وأقضى من الأحكام أيَّان يشهـر

ودرسك في التفسي أشهى من الجنى

وأبهى من الروض النضير وأبهـــر

ختمت كتاب الله ختمـة دارس

بصيـر له حلُّ العويص ميـسَّـــــرُ

---

1. نشرت في جريدة (البصائر) عدد43 سنة1936. ونشرت في الديوان صفحة291 وبها(11) مقطعا.

فكم لك في القرآن فهم موفَّقٌ

وكم لك في القرآن قول محرَّرُ

قبست من القرآن مشعل حكمة

ينار به السرَّ اللطيف ويبصر

وبيَّنت بالقرآن فضل حضارة

أقرَّ لها كِسرى و أذعن قيصر

أعد يا ابن باديس الحديث وأبده

بأنعُمِك اللاَّتي بها أنت تُؤثَرُ[1]

تهنئة الابراهيمي بعضوية المجمع اللغوي

قل للبشير رفعت هامة أُمةٍ

ذلَّتْ وشعب كان قَبلَكَ خامِلاً

مازِلتَ تكشِفُ عن خَفِيٍّ نُبوغه

حتى تَبيَّنَ للنواظر مائلا

أخجلتَ أقطاب البيان فمن يكن

سحبانُ أو قُصًا يُلاقِك باقِلاَ

أدْركتَ في الفُصحى مدارك لم يكن

في العصر ذو أدب إليها واصلا

باريت فيها المجد عبر محيطه[2]

والمجد لا يعدو المُجِدَّ العامِلا

---

1. نشرت في العدد الخاص بختم التفسير من الشهاب1938. ثم في الديوان وفيها نحو (45) بيتا من الشعر ص 156.

2. يريد (مجد الدين الفيروزبادي) وكتابه (القاموس المحيط) المعروف.

ناهيك بالخَطب الفِصاح شـــواهـــدا

أدهشْتَ أشهـــادًا بـــها ومــحـافِـــلا

مهما خَطبتَ أعطيت لفظك لهجـــةً

وأصبْتَ في المعنى كُلىً و مَفاصِـــلا

تالله ولا أُو فيـــك حَقَـــكَ كُـلَّـــهُ

مهما نَسَجْتُ لك الـــمديح غلائـــلا[1]

السَّفر الخالد

هيهات لا يعتـــري القرآن تبديـــل

وإن تـــبـــدَّلَ تـــوراة وإنـــجـــيـــل

ماذا تقولون في أي مفـــصـــلـــة

يزينها مـــن فـــم الأيـــام ترتيـــل؟

ماذا تقولون في سفـــر صحائفـــه

هديٌ من الله مُمض فيه جبريـــل؟

آياته بهُدى الإســـلام ما بـــرحـــت

تهدي الممالك جيـــلا بعـــد جيـــل

فآية ملؤُهـــا ذكـــرى وتبصـــرةً

وآية ملـــؤُها حكـــم وتفصيـــل

كلامُه الصدق لامينٌ ولا كـــذِبٌ

وحُكمُه الحق لا ميـــزٌ وتفضيـــل

---

1. نشرت في البصائر عدد 264 سنة 1954- ثم في الديوان سنة 1967 وبها 20 بيتا.

فليس فيه لأعلى النـاس منــزلـــةً:

عدنٌ وفيه لأدنى النـــاس: سجِّيـــل

ولااحتيال ولا غمـــطٌ و لا مـطـــلٌ

ولا اغتيال ولا نغـــص وتـنـكيـــل

قد كان أعدل قانون يُسـاس بـــه

أمرُ الشعوب ففيم القـال و القيـل؟[1]

كلها بعنوان (ما بال آشيل يهـذي؟)

يا هـزاري

نـاجنـــــي نجـــوة ادِّكــــار

واشـــــدُ لـي ليـــــل نـــــهـــارِ

قـد دنـــــا فــــكُّ الإســـــار

يـــــــا هــــــــــــــــزاري

عبَثًا أبكـي وتبكـي شَجَنـــا

تـارةً سِــرًا وطـــورًا علنًـــا

لم نَجِدْ في الأرض من يرْثَى لنـا

غيرواهٍ فـيَّ مثل الزنْــــدِ واري

فا صطبــر مثل اصطبـــاري

يـــــــا هــــــــــــــــزاري

---

1. نـشرت في الـشهاب. ونـشرت في كتـاب شـعراء الجزائـر ج(1) سـنة1926 كمـا نـشرت في الديوان سنة1967 وفيها(28) بيتا من الشعر.

أنـــت رمـــزي و شِـــعـــاري

أنـــتَ سَيْفِـــي ذو الفِقـــارِ

أنـــت مـزمـــاري وطـــاري

يـــــا هـــــــــزاري

غيـــر أنَّا فاتَنا نيـــلُ المُنـى

فتـــولاَّنا فتـــورُ و عـنـــا

خِبْتَ في الشدْوِ كما خبتُ أنا

في حياتي فتمنَّيتُ احتضـــاري

وتبـــرمَّـــتُ بـــــداري

يـــــا هـــــــــزاري.

نشرت في البصائر عدد 170 سنة 1951

كما نشرت في الديوان ص49 وبها 20 بيتا

• محمد العيد والشهادة الجامعية والثقافة الأجنبية:

زعم بعض من كتب عن محمد العيد آل خليفة أنه تحصل على شهادة التطويع أو التحصيل من جامع الزيتونة بتونس، وهي أعلى شهادة تعطى فيه، كما توهم بعض الدارسين لشعره أنه يحسن اللغة الفرنسية، وغير ذلك من الخلط الغريب، وهو لم يدرس سوى سنتين اثنتين في جامع الزيتونة، ولم يكمل تعليمه فيه ولا تحصل على شهادته. أما المدرسة الفرنسية فلم يطرقها ولا تعلم لغتها، ولا أية لغة أجنبية أخرى واكتفى بلغته العربية.

والأغرب أن يصدر هذا التحرش من مواطنين جزائريين معاصرين لمحمد العيد ويسكنون معه في بلده! وهو لا يزال حيا يرزق، ومعروف غير مجهول لدى الخاص والعام. وفي وسع كل واحد من هؤلاء الباحثين والدارسين أن يتصل بمحمد العيد أو بمعارفه العديدين وأصدقائه الكثيرين، قبل أن يكتب عنه ما يكتب ظنا وتخمينا، إن كانوا ممن يحترمون الكلمة ويقدرون ما يصدر عنهم.

ورغم أنه لا نصيب لتلك المزاعم من الصحة، فإن عدم تحصيل شاعرنا الكبير على أي شهادة علمية من أي مدرسة أو معهد أو جامعة، ورغم عدم معرفته لأي لغة أجنبية من اللغات الحية لا ينقص من قيمته شيئا، وليس بحاجة إلى ذلك الإدعاء والتلفيق ليثبتوا له مكانة ما أو قيمة مرموقة ترفع من قيمته ومكانته.

أقول وأكرر على الرغم من عدم تحصيل شاعرنا العبقري على الشهادات الجامعية، وعلى الرغم من عدم تفتحه على اللغات الحية والثقافات الأجنبية، فقد تحصل على اعترافات وشهادات جماعية من فطاحل العلم والمعرفة داخل الوطن وخارجه، ممن اطلعوا على إنتاجه وشعره من أئمة البيان والبلاغة العربية، وأساطين العلم والثقافة الأجنبية أمثال: أمير البيان الأمير شكيب أرسلان المثقف الموسوعي الذي يكتب ويخطب بخمس لغات من اللغات الحية العلمية، والعلامة العبقري سيد الكتاب والبلغاء العرب في هذا المغرب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي يعتبر بحق وصدق دائرة معارف العلوم العربية والثقافية الإسلامية، وحسبنا بهما، ثم الإمام العلامة رائد الإصلاح والمصلحين الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والداعية الإسلامي الكبير الشيخ الطيب العقبي، وكلا هذين كاتب وشاعر وصحفي، وبهما تضرب الأمثال عندنا في الكتابة والخطابة، والمفكر الفيلسوف مالك بن نبي، والباحث النظار المؤرخ الشيخ مبارك الميلي... الخ.

كل هؤلاء شهدوا بتمكن شاعرنا من اللغة العربية ويعتبرون شعره من أجود الشعر العربي المعاصر وأساسه.

وأخيرا وليس آخرا ذلك المستشرق الألماني الفاضل الدكتور ويلهيلم هوينرباخ[1] رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة "كيهل"

---

1. انظر التعريف به وبمحمد العيد في(لمحات) العدد الآنف الذكر صفحات28.29 .30.

الألمانية الذي جاء بدعوة من "معهد غوتة" الألماني بالجزائر ليعرفنا بشاعرنا محمد العيد- وهو يعلم أننا نعرفه حق المعرفة ونقدر نبوغه - ومع ذلك تجرأ وتقدم ليعرف الجزائريين بقيمة ومكانة شاعرهم الكبير محمد العيد آل خليفة - فألقى محاضرة قيمة باللغة العربية فيه بعنوان"محمد العيد صوت الجزائر"[1] وقد صدق في هذا اللقب أو هذا النعت الذي أعطاه لمحمد العيد، ولم يسبقه إليه أحد. وكان موفقا كل التوفيق في ذلك فقال في جملة ما قال في محاضرته:"إن محمد العيد هو الصوت الحقيقي المعبر عن شعبه وبلاده بصدق وإخلاص."وجعل من شعره موضوعا للإشادة باللغة العربية ومكانتها بين اللغات الحية العالمية ويراها إحدى أهم مقومات الشخصية الجزائرية. التي يتنكر لها بعض الزعانف ممن ينتسبون إلى هذا الوطن جغرافيا.

وذلك العالم المحقق الأديب السوري الكبير الدكتور شكري فيصل "الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق" الذي عرف محمد العيد جيدا ودرس شعره بإمعان ثم رشحه "لمجمع اللغة العربية بدمشق" فانتخبه أعضاء المجمع اللغوي بإجماع عضوا مراسلا للمجمع "مجمع العباقرة الخالدين" سنة1972[2].

---

1. نص المحاضرة في (لمحات) في نفس العدد 31. 38.
2. نص الرسالة في كتاب (محمد العيد دراسة تحليلية لحياته) للأستاذ محمد بن سمينة أستاذ الأدب العربي في جامعة الجزائر المركزية صفحة 159.

ولا أنسى في الأخير "الإجازة العلمية التقليدية عند القدماء" التي حصل عليها الشيخ محمد العيد خليفة من فضيلة الإمام الأكبر شيخ مشائخ جامع الزيتونة الموقر"العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور"، وقد أجازه بها فيما ثبتت له روايته في كتب السنة النبوية، وفي كتب العلوم الشرعية والأدبية، والشهادة مؤرخة بيوم السابع من ذي الحجة عام 1372هـ[1] وهذه الشهادة أهم من شهادة جامع الزيتونة. وقد كانت هذه الإجازات العلمية من كبار العلماء تقوم مقام الشهادات الجامعية اليوم.

فقيمة شاعرنا تعدت حدود الجزائر، وراحت تزاحم كبار شعراء اللغة العربية المعاصرين، الذين تخرج معظمهم من الكليات والجامعات العلمية، أو حصل على أقساط من الثقافة الأجنبية من تلك اللغات العالمية التي لقحت ثقافتهم العربية وزودتهم بمعارف أخرى رفعت من مستواهم المحلي إلى مصاف الشعراء العالميين أمثال: أمير شعراء الجيل أحمد شوقي بك وشاعر النيل حافظ إبراهيم في مصر، ومن شعراء الرافدين أضراب: معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي في العراق، ثم جبران خليل جبران أو أبي ماضي وأبي شادي في المهجر.

وهل يحط من قيمة المفكر العملاق عباس محمود العقاد مثلا أنه لا يحمل أية شهادة علمية جامعية؟ وهل ينقص من قيمة وعبقرية مصطفى صادق الرافعي أومحمد البشير الإبراهيمي أنهما لايعرفان لغة أجنبية ولا تحصلا حتى على الشهادة الابتدائية في لغتهما العربية؟! كلا ثم كلا.

---

1. نص الإجازة في الكتاب السابق الذكر صفحة 155.

وهل كان أولئك العباقرة الكبار أمثال: الفيلسوف أبوالعلاء المعري والشاعر أبوالطيب المتنبي والمؤرخ الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون يحملون شهادات جامعية أو يعرفون اللغات الأجنبية؟ وهو الذين شغلوا الناس دهورا ولا يزالون يشغلونهم؟! وغير هؤلاء كثير في كل عصر ومصر.

وهل كبار الفلاسفة والمفكرين القدامى من الشرقيين والغربيين الذين نالوا ما نالوا من المكانة السامية العالمية. هل كان ذلك بسبب نيل الشهادات الجامعية والتعرف على مختلف اللغات الحية؟ كلا أبدا، إنما هو الذكاء والنبوغ والعبقرية والهمم العالية العصامية التي لا يقف أمامها شيء في البلوغ إلى ما تريد من السمو والتطلع إلى الغايات البعيدة في الآفاق اللامتناهية.

وهل البكوية أو الباشوية التي أعطيت للدكتور طه حسين ولغيره، وألقاب التشريف ونياشين الافتخار والأعلاق النفيسة والرتب والمناصب العالية التي كرموا بها، هي التي رفعت أقدارهم وبوّأتهم تلك المنازل والمكانات الرفيعة؟ كلا ثم كلا. بل قيمتهم سبقت ذلك كله وهي التي جلبت لهم تلك الألقاب والنياشين والرتب العالية والمكانة السامية، فاعتبروا يا أولى الأبصار!.

وكم في عالمنا اليوم من الحاملين للشهادات الجامعية وهم من الخاملين المغمورين لا يعرفهم سوى ذويهم وتلاميذهم، ويعتبرون من أميي الثقافة العلمية أو أشباه الأميين! وكم في عصرنا من العارفين للغات الأجنبية الذين لا يعرفهم غير أهلهم وبعض معارفهم! فالشهادة الجامعية

بالنسبة لهؤلاء لا تعدو أن تكون مجرد ورقة هوية، كمن يحمل جنسية قوم وهو لا يمت إليهم بنسب.

أما القيمة الحقيقة للشخص فهي قيمته الذاتية بذكائه وعبقريته، وبمعارفه التي اكتسبها بجهوده الخاصة، وبسلوكه وقيمه ومواهبه، وبإنتاجه وتجاربه في الحياة. فالقضية بالنسبة لشاعرنا قضية نبوغ وعبقرية، ومواهب فطرية، وتكوين ذاتي وعصامية قبل أن تكون شهادة جامعية، وثقافة أجنبية.

ونحن مع ذلك لا ننكر ما للشهادات العلمية من قيمة في حد ذاتها، ماعدا "شهادة الغرباء" التي تعطى في جامعات بعض الدول، وهي لا تساوي شيئا عندهم ولا يعترف بها في بلادهم،

وهي إنما تمنح للتخلص من بعض الطلاب الأجانب غير النابهين وتسريحهم ليعيشوا بها في العالم الثالث المتخلف. وكان المرحوم مولود قاسم يقول في بعض حاملي شهادة "الدكتوراه من الدرجة الثالثة" التي تعطيها جامعاتنا ويصبح حاملها دكتورا يقول فيها مولود قاسم "دكتوراء كوكوت مينيت" أي مطبوخة طبخا سريعا غير ناضج.

ولا نجهل فائدة تعلم اللغات والتفتح على الثقافات، ومن الخير أن يجمع المرء بين الاستعداد الفطري والاكتساب المعرفي والتفتح الثقافي بأي طريق. وإن لا يجني عدم التحصيل على تلك الورقات على القيم الحقيقية للموهوبين وأصحاب الكفاءات والعبقريات.

• آثاره المنشورة:

- ديوان شعره الذي طبع ثلاث مرات من سنة 1967م.

- رواية "بلال بن رباح" مسرحية شعرية من نوع مسرحيات شوقي الشعرية المعروفة طبعت في المطبعة العربية بالجزائر للشيخ أبي اليقظان سنة 1938.

- أنشودة الوليد في يوم المولد السعيد" مع موجز نثري للسيرة النبوية.

- معظم شعره منشور في الصحف الوطنية بالجزائر في عهدي: الاحتلال والاستقلال. وشعر شبابه منشور في كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" للهادي السنوسي الجزء الأول طبع بتونس سنة1926.

- وله كتابات نثرية في الدين والأخلاق قليلة بالنسبة لشعره الكثير.

- ومسرحية بعنوان "شبح القصر" مقتبسة من الاسبانية صاغها نثرا ونظما بالعربية الفصحى في قالب عربي إسلامي مثلتها فرقة من التلاميذة سنة 1936 وخطب محمد العيد قبل عرضها وقدمها للجمهور. كما في جريدة الأمة لأبي اليقظان عدد 101 بتاريخ 21 ديسمبر 1936.

● بعض ما قيل فيه من أساطين العلم والثقافة والأدب:

1. قال فيه شيخ الشيوخ وسيد العلماء العاملين ابن باديس في العشرينات من هذا القرن، لما نشر له قصيدة في"جريدة الشهاب" بعنوان "في ذمة التاريخ" - ومحمد العيد شاب في مقتبل العمر لم يتجاوز بعد العشرين عاما- قال:" تحت هذا العنوان جاءتنا القصيدة العصماء للشاب النابغ شاعر الجزائري. وإذا كان الشعور هو الإدراك القوي الخفي لتفاصيل المؤثرات ودقائقها، والشعر هو الكلام الفصيح البليغ الناشئ عن ذلك الشعور، والشاعر هو صاحب الشعور المعرب عنه بذلك الكلام، ليحرك شعور السامعين. فهذا هو الشعور، وهذا هو الشعر، وهذا هو الشاعر"[1]

ونشرت هذه القصيدة في "ديوان محمد العيد" في الاستقلال وبها نحو40 بيتا بعنوان "باخرة الموت" كما نشرت من قبل في كتاب "شعراء الجزائر" للهادي السنوسي في أواسط العشرينات بنفس العنوان "باخرة الموت" الجزء1 ص14[2].

---

1. جريدة (الشهاب) لابن باديس عدد 86 سنة 1926.
2. سبب قصيدة "باخرة الموت" أن وزير المستعمرات أصدر أمرا يمنع دخول العمال الجزائريين إلى فرنسا استرضاء للمعمرين في الجزائر الذين اشتكوا من نقص اليد العاملة في كرومهم الواسعة وحقول قمحهم المترامية، فحجر على عمالنا السفر إلى فرنسا.

ولما ضاقت سبل العيش على جماعة من العمال بسبب البطالة المتفشية عزموا على السفر متسللين في باخرة فرنسية رشوا صاحبها فاخفاهم في عنابر الفحم والغاز المظلمة باسفل الباخرة، لا هواء بها ولا نور وأغلق عليهم الأبواب، حتى ماتوا اختناقا، وكانت ضجة عظيمة في العالم لما افتضحت هذه الحقيقة الشنعاء، التي تاثر لها شاعرنا الشاب"محمد العيد" ففاضت شاعريته بهذه القصيدة التي وصف فيها الماساة، وتوجَّع لها، ونعى على فرنسا جريمتها النكراء وغيرها من الجرائم ضد الإنسانية.

2. لقيت هـذه القـصيدة ذيوعـا وانتـشارا في المغـرب العربـي، حتـى إن الشاعر المغربي"مختار السوسي" أشاد بصاحبها في قصيد لـه يقول فيه:

لم لا أقول الشعر كيف أريد؟

وأنـا بنيـران الشعــــور وقـــــود

لم لا أقـول وإننـي متملمـــــل؟

فـي حيـن أن القـائليـــن رقـــود

هل فاتني الذوق السليم فيستوي

عنـدي الشويعر والبليـغ (العيد)

(يعني محمد العيد خليفة)

3. وعلق مواطنه "محمد بن العباس القبـاج" في كتابـه "الأدب العربـي في المغرب الأقصى" على هذه الأبيات للسوسي بقولـه: "محمد العيد أحد نبغـاء الشعر بالجزائر، اشتهر بقصائده الحية، وحماسياته الفياضة... الخ".

هذا ومحمد العيد في أوائـل عهـده بالـشعر، أمـا فيمـا بعـد فقـد اشـتهر شعره ونضج فشاع وذاع، وعرف صاحبه أولا: بشاعر الشباب، ثـم بـشاعر الجزائر، وشاعر المغرب العربي، إلى آخر النعوت والألقاب التي عرف بها.

4. وهذا أمير البيان "شـكيب أرسـلان" في أواسـط الثلاثينـات يقـول في شعر"محمد العيد":

"كلما قرأت شعرا لمحمـد العيـد الجزائـري تأخذني هـزة طـرب تملـك علـي جميـع مـشاعري... في سلاسـة نظمـه، وخـف روحـه، ودقـة شـعوره، وجـودة سـبكه، واسـتحكام قوافيـه، الـتي يعرفهـا القـارئ قبـل أن يـصل

إليها، وإن التكلف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، فيكون "محمد العيد" الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاث مرات، ولا أمل، وتمضي الأيام والليالي وعذوبتها في فمي. كان يظن أن القطر الجزائري تأخر عن إخوانه الأقطار العربية في ميدان الشعر والأدب. ولعله بعد الآن سيعوض الفرق بل سيسبق غيره بمحمد العيد[1]"

5. وابتداء من أواسط سنة 1937 شرع "الشهاب" ينعت محمد العيد بأمير شعراء الجزائر.

وقال فيه أمير البيان العربي في مغربنا "الشيخ البشير الابراهيمي" في أواخر الثلاثينات:

"الأستاذ محمد العيد شاعر الشباب، وشاعر الجزائر الفتاة، بل شاعر الشمال الإفريقي بلا منازع، شاعر مستكمل الأدوات خصيب الذهن، رحب الخيال، متسع جوانب الفكر، طائر اللمحة، مشرق الديباجة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسج، مترقرق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها، بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقق في مفردات اللغة علما وعملا، وقّاف عند حدود القواعد العلمية، محترم للأوضاع الصحيحة في اللغة كلها، لاتقف في شعره - على كثرته- على شذوذ أو رخصة أو تسمح في قياس، أوتعقيد في تركيب، أو معاظلة في أسلوب، بارع الصنعة في الجناس

1. نشرت هذه الشهادة بخط يد(الأمير شكيب) مع صورته الفوتوغرافية وصورة (محمد العيد) في فاتحة(الشهاب) ج4 م13سنة1937 تحت عنوان(علق نفيس).

والطباق وإرسال المثل، والترصيع بالنكت الأدبية والقصص التاريخية... رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من آثارها: القصائد الغر، والمقاطع الخالدة.

فشعره سجل صادق لهذه النهضة، وعرض رائع لأطوارها. وقد سمت نفسه في العهد الأخير إلى الشعر الفلسفي، وتظهر فيه عدة مقطوعات لزومية رائعة نشر القليل منها"[1].

وأخيرا وليس آخرا هذا أحد تلاميذه النبغاء "الدكتور صالح خرفي" يقول فيه:

"كان محمد العيد بالنسبة لي - ولم يزل- لحظات صفاء، ومحطات سكينة في رحلة الأيام المطوحة مغربا ومشرقا، المضنية وحدة واغترابا، كان ولم يزل شعره الأنيس والرفيق، والمرشد والرائد، والأخوة والاعتزاز، أن تتجب الجزائر في عصرها الحديث، وفي أحلك الأيام اضطهادا، وأقساها معاناة، وأمرها تضييقا على الحرف العربي، وأشدها ضراوة على الإسلام والمسلمين.

أن تتجب الجزائر، هذا النفس الشعري العربي الأصيل، يمتد ستين عاما، في وفاء غير ذي عوج، وأنفة لا يشوبها استخذاء، وصدق في الرسالة من المهد إلى اللحد، وتلك سمات الشاعر المؤمن "محمد العيد"، وهي ميزة

---

1. نشرت في (شهاب ختم التفسير) سنة 1938، ثم في (ديوان محمد العيد) كتقديم له سنة 1967.

نادرة، لم تتهيأ لشاعر عربي في النهضة الأدبية الحديثة، إن "العيد" من هذا المنطلق، وهذا الموقع بدع في الشعراء كما قال فيه الإمام الراحل "محمد البشير الإبراهيمي"، ومن يعرف محمد العيد، ويعرف إيمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره، إنما هي من آثار صدق الإيمان، وصحة التخلق، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء"[1]

• الاهتمام بمحمد العيد:

اهتم به اتحاد الكتاب الجزائريين فخصه بندوات في قاعته بالعاصمة أو في ملتقيات بدور الثقافة وغيرها من القاعات في مختلف الولايات، حيث يتناول الباحثون والدارسون من أعضائه ومن غيرهم: مراحل حياة الشاعر وأغراض شعره وما غمض عليهم فيهما، يتناولونه بالدرس والنقد والتحليل، والخطباء والشعراء في الإشادة بالشاعر وشعره، أو بالشعر من حيث هو، وبالشعراء الجزائريين وغيرهم وعلى الخصوص في قاعة الزيبان أو في دار الثقافة بمدينة بسكرة، حيث يعقد سنويا مهرجان الشعر باسم محمد العيد خليفة ويتبارى فيه المحاضرون والخطباء والشعراء، كل حسب طاقته وبطريقته الخاصة به. يقام هذا المهرجان كل عام من عدة سنوات وما يزال.

1. من تقديم كتاب (محمد العيد خليفة) للدكتور صالح خرفي، المؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1986.

واهتم به الكتاب في الصحف والمجلات في المناسبات وإحياء الذكريات، وعقد بعضهم معه مقابلات تطول أو تقصر، ولبعضهم معه مراسلات قليلة أو كثيرة لاستجلاء ما غمض عليهم من حياته وأغراض شعره وما إلى ذلك.

واهتم به المؤلفون فخصوه بكتب أو بفصول في كتبهم كما سأذكر بعد حين:

واهتمت به الوزارات مثل: وزارة التربية في مناهجها التعليمية وتسمية بعض مدارسها باسمه وكذلك وزارة الثقافة، ووزارة الداخلية التي أطلقت اسمه على عدة أماكن في قطاعاتها.

- **المؤلفون الذين تناولوه في كتبهم:**

- بلقاسم سعد الله في كتابه: "شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة" الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للكتاب ط3 سنة 1984.

- بلقاسم سعد الله "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" دار الآداب بيروت سنة1966.

- أ. محمد بن سمينة: "محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لشعره" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر سنة 1992.

- أ. محمد بن سمينة : "محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر" المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989.

- أ.محمد بن سمينة: "تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة" دار الغرب الإسلامي 1997.

- د. صالح خرفي "شعراء من الجزائر الحلقة الأولى" معهد البحوث والدراسات القاهرة 1969.

- د. صالح خرفي "صفحات من الجزائر" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1972.

- د. صالح خرفي "محمد العيد خليفة" سلسلة في الأدب الجزائري الحديث رقم 4 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1976.

- د. أبو العيد دودو "كتب وشخصيات" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1973.

- د. عبد الله الركيبي "دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث" الدار القومية القاهرة 1962.

- د. عبد الله الركيبي "قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر" معهد البحوث والدراسات القاهرة 1970.
- د. عبد المالك مرتاض "نهضة الأدب العربي في الجزائر" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1971.
- أ. الهادي السنوسي الزاهري "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" جزآن تونس سنة 1926.
- أ. محمد الطمار "تاريخ الأدب الجزائري" الشركة الوطنية الجزائرية الجزائر 1969.
- أ. أحمد توفيق المدني "كتاب الجزائر ط2" دار المعارف بمصر 1963.
- ابراهيم الكيلاني "أدباء من الجزائر" دار المعارف بمصر 1958 سلسلة إقرأ.
- محمد طه الحاجري "جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر" معهد البحوث والدراسات بالقاهرة 1968.
- د. عمر بن قينة "صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث أعلام وقضايا ومواقف" ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993.

وهناك بحوث ودراسات أخرى أعدها ويعدها طلبة الدراسات العليا بالجامعات الجزائرية وغيرها ، حول جوانب من أدب وشعر محمد العيد آل خليفة لا أحصيها.

الناقد الأديب

حمزة بوكوشة

(1994-1907)

الناقد الأديب حمزة بوكوشة

- **تعريفه:**

اللقب الرسمي للعائلة "شنوف" والاسم الذي اشتهرت به هو "بوكوشة" ولد حمزة بن البشير بوكوشة بمدينة الوادي "وادي سوف" سنة1907، وفي مسقط رأسه حفظ القرآن وعمره14 سنة. وتعلم مبادئ الإسلام واللغة العربية على والده الشيخ البشير بوكوشة في مدينة بسكرة حيث كان الوالد يتعاطى التجارة. وعلى بعض الفقهاء والمعلمين هنالك درس مبادئ النحو والصرف والفقه، ويحضر دروس الوعظ والإرشاد ليلا على بعضهم.

وفي أكتوبر1923م التحق بأخيه الأكبر الهاشمي الطالب في جامع الزيتونة بتونس ليواصل دراسته هنالك، وبعد ست سنوات من التعلم الجاد تحصل على "شهادة التطويع" وهي أعلى شهادة كانت تعطى فيه فتخرج سنة 1930.

وكان حمزة ممن حضر وشارك في تأسيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" يوم05 ماي1931 بالعاصمة نائبا عن أبيه المتوعك إذ ذاك، عمل في حقل التعليم الحر الذي تدعو له جمعية العلماء، فاشتغل به في بلدة "دلّس" بالقبائل الكبرى أربع سنوات ابتداء من سنة 1932، ثم في مدرسة التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة سنة 1936. وكان يعطي دروسا لطلبة ابن باديس في مسجد "سيدي بومعزة" القريب من المدرسة المذكورة فكان من مساعدي ابن باديس في التعليم المسجدي، وربما علّم بالعاصمة بعض الوقت.

وتعين عضوا إداريا بمجلس الجمعية كمستشار سنة1937 ثم كمراقب لها عام1947، وضمن هيئة تحرير جريدتها "البصائر" المكونة من الأساتذة: توفيق المدني وباعزيز بن عمر وأحمد سحنون وحمزة بوكوشة. وكان ممن أوفدتهم الجمعية إلى فرنسا عام1938 لتعليم الجالية الجزائرية هنالك وتعين عمله في مدينة "ليون" حتى قيام الحرب العلمية الثانية.

تعاطى التجارة في فترات من حياته ببسكرة أولا مع أبيه ثم في العاصمة نائبا عنه وأخيرا في وهران ممثلا لشركة "آمال" التجارية التي أنشأها عباس التركي وجماعة على مستوى الوطن وتعرض للاعتقال في ثورة التحرير سنة 1956 إلى أن شمله العفو العام.

في الاستقلال اشتغل بالوظيف أولا كمتصرف مدني بوزارة الأوقاف سنة 1963 ثم عمل أستاذا للغة العربية في ثانوية عمر راسم ثم في ثانوية عقبة بالعاصمة حتى التقاعد. وتابع الدراسة العليا في الحقوق بجامعة الجزائر المركزية عام1966 ونال فيها شهادة الليسانس سنة1971 وعمل بها مستشارا في المجلس الأعلى للقضاء بوزارة العدل. ثم فتح مكتب محاماة عام1980 لكيلا يخلد للراحة والسكون كبعض المتقاعدين إلى عام1988. وانتقل إلى جوار ربه يوم18. 11. 1994 ودفن بمقبرة القطّار بالعاصمة.

● حمزة بوكوشة كما عرفته[1]

الأستاذ الأديب الشيخ حمزة بوكوشة أوحمزة شنوف كما في ورقة تعريفه كاتب اجتماعي، وشاعر وجداني، وناقد بصير وفقيه إسلامي، وحقوقي مدني، توزع معظم نشاطه في الصحافة والتعليم والتجارة، وأخيرا في القضاء والمحاماة، وترك بصماته في كل هذه الميادين وعلى الخصوص في الصحافة.

عرفه معظم القراء ناثرا أكثر منه شاعرا، وبعضهم - وخاصّة رواد المساجد- عرفوه واعظا مرشدا، والحقوقيون وأصحاب المحاكم عرفوه في قاعات القضاء والمحاماة، ورجال الأعمال عرفوه تاجرا، وعرفه الطلاب أستاذا للغة العربية وآدابها.

ومن عرفه في ميدان من تلك الميادين ظن أنه اختصاصه وليس له مشاركة في غيره، فكيف عرفته أنا؟

عندما كنت تلميذا في مسقط رأسي"القنطرة" ولاية باتنة، ثم طالبا في أواسط الثلاثينات بقسنطينة، كنت أقرأ للأستاذ حمزة بوكوشة مقالات وقصائد في الصحف الجزائرية، وخاصة في مجلة "الشهاب" وجريدة "البصائر" فالرجل كان معروفا عندي ككاتب وشاعر قبل أن ألقاه وأتصل به شخصيا. ثم تعرفت عليه من قرب في السنتين التاليتين1936و1937 لمّا عيّن معلما في مدرسة "التربية والتعليم بقسنطينة" وأستاذا مساعدا لابن باديس في أحد فروع "الجامع الأخضر" وهو مسجد "سيدي بومعزة".

---

1. الموضوع نشر في مجلة(الثقافة) الجزائرية السنة19 عدد105و106 لسنة1995.

وكنت حينئذ طالبا أزاول دراستي على الأستاذ الإمام ابن باديس، ولم يكن الأستاذ بوكوشة يدرس للطبقة التي كنت فيها ، ومع ذلك كنت أحضر له درسا في متن "السُّلّم المرونق" للأخضري في علم المنطق بذلك المسجد المذكور، في ساعة لم يكن لي فيها درس بغرض التعرف على الأستاذ.

فقد كان بوكوشة يعلم معظم الوقت لتلاميذ "مدرسة التربية والتعليم" ويعطي ساعة أو ساعتين لطلبة ابن باديس في "سيدي بومعزة" والمسافة بين هذا المسجد وتلك المدرسة قريبة جدا ، كما كان يفعل مثل ذلك أساتذة آخرون في أماكن أخرى: كالفضيل الورتلاني، وعبد العالي الأخضري، وبلقاسم الزغداني، فيجمعون بين التعليم المدرسي والتعليم المسجدي، وآخرون يتفرغون للتعليم المدرسي فقط مثل ابن العابد الجيلالي، ومحمد النجار الحركاتي، أوللتعليم المسجدي لا غيرمثل الجيلالي الفارسي وعبد المجيد حيرش.

ولم يكن يهمني درس المنطق من كتاب "السُّلم المرونق" لعبد الرحمن الأخضري، لأني كنت قرأته سابقا. ولكنَّ الذي كان يهمني هو التعرف على هذا الأستاذ الأديب بوكوشة الذي كنت أقرأ له في الصحف قبل أن أعرفه. فتعرفتُ عليه وتذاكرت معه خارج الدرس مرات.

وحدث أن عرضتُ عليه ذات يوم - وقد قرَّبني وفتح لي قلبه- محاولة شعرية لي بعنوان "يا للعجب ما للعرب" ليعطيني رأيه فيها ، فأُعجب بها أو هكذا بدا لي، ثم قال لي:

- دعني أتأملها جيدا وأعيدها لك بعد أيام مع الملاحظات

والتصوييات إن كانت. وانتظرت وطال الانتظار، ثم سألته عنها فقال:

- لا تقلق سأعيدها لك، واعتذر عن التخلف بأشغال وواجبات لم تسمح له بالتفرغ لها، ولم يكن هذا هو السبب في التخلف كما سنرى.

وذات يوم - بينما أنا أنتظر إعادتها لي- إذ أقبل بعض الطلاب ممن يقرؤون معي في طبقتي يهنئونني بالنبوغ والعبقرية فحسبتهم يمزحون أو يسخرون ولكنَّ ملامح الجد والبراءة كانت بادية عليهم، فقلت:

- أي نبوغ وأية عبقرية؟

قالوا:

- قرأنا لك الساعة قصيدا رائعا في مجلة "الشهاب".

قلت:

- في "الشهاب"؟!

قالوا:

- نعم في الشهاب.

قلت:

- لم أبعث بشيء إلى الشهاب أو غيره، ومالي وللنشر في الصحف؟!

قالوا:

- قرأنا لك قصيدة في "الشهاب" بعنوان "يا للعجب ما للعرب" فأعجبنا بها وجئنا نهنئك على ذلك فاندهشت! ثم أخرج أحدهم "الشهاب" من محفظته وفتحه على القصيدة وقدمه لي قائلا:

- أليس هذا الشعر لك؟.

قلت:

- بلي، ولكني لم أبعث به إلى مجلة الشهاب، وغاية ما هنالك أني أطلعت عليه الأستاذ حمزة بوكوشة ليعطيني رأيه فيه، وبقيت أنتظر إرجاعه لي حتى أعرف ما فيه من عيب، ولكنه لم يفعل، واستبطأته فطمأنني. ثم أدركنا أن الأستاذ كان يريد هذه المفاجأة السارة، وهي دفعة قوية ذكية لي وتربوية في نفس الوقت، للقضاء على التردد والشك وعدم الثقة في النفس مما يعتري عادة المبتدئين، وأكبرنا في الأستاذ هذا العمل التربوي القيم.

وكنت أتقرب إلى الأستاذ بوكوشة فيقبلني بفرح وسرور، نتلاقى في بعض المقاهي الإصلاحية على مشروبات باردة أو ساخنة، ونتذاكر في الشؤون الثقافية والأدبية، فيفتح لي صدره وقلبه، ويمتعني بملاحظاته وتوجيهاته وبانتقاداته خاصة فيما يظهر في الصحف من مقالات وآراء وأفكار وأدب.

دعاني مرة إلى حيث كان يقطن منفردا، وهذا المسكن عبارة عن غرفة متواضعة بسيطة الأثاث كغرف الطلاب العزاب، فالتقينا على أكلة من الأكلات الشهية الوطنية التي أحبها وأوثرها على غيرها: أكلة "المحاجب" وهي عبارة عن رقائق من سميد القمح الرفيع مدهونة ومحشوة بالتوابل تُطهى على "الطاجين أو الطابونة"، كانت ما تزال ساخنة، أُهديت له من بعض معارفه أوبني منطقته الساكنين في قسنطينة، والرجل دمث الأخلاق محبوب لدى الجميع، فأبى إلاّ أن يشركني في تناولها معه.

وتوطدت الصلة بيننا: فكان يدعوني إلى مسكنه ذلك لتناول الشاي الذي يتقن إعداده، ويعرض عليَّ مقالاته قبل أن ينشرها، لأنه بلغه أني كنت ناقشت زميله في طلب العلم بالزيتونة الأستاذ مصطفى بن حلوش في جريدة "البصائر" باسم مستعار، طالبا منه توضيح كلامه في عبارة " عادة الحجاب الثقيلة" التي كانت سببا في تخلف المرأة الجزائرية وعدم مشاركة أخيها الجزائري في ميادين الحياة. وخاصة في تجمعات وملتقيات "المؤتمر الإسلامي الجزائري" الجارية في القطاع الوهراني سنة1936، وكان ابن حلوش هذا يغطي تحركات ونشاط وفد المؤتمر في المدن الوهرانية وينشره في جريدة "البصائر".

وبدأ الشيخ بوكوشة ينشر سلسلة مقالات بالبصائر في "الحجاب والسفور" ضد ابن حلوش الذي يراه بوكوشة من دعاة السفور أو التبرج أوالتحرر للمرأة الجزائرية التي لم تكن تخشى التجمعات والملتقيات الرجالية في ذلك الوقت.

فالشيخ حمزة كان يقرأ عليَّ مقاله أن ينشره ويسألني رأيي فيه، ويدعوني إلى مشاركته في هذه الحملة على ابن حلوش فأقول له: أنا ما أزال طالبا ولم أنضج بعد ولم أتمكن من أساليب الكتابة، أنا أقرأ لك ولغيرك وأجتمع بك وأستمع إليك لأستفيد منك لا لأفيدك، فكان يشجعني على إبداء الرأي، والنقد لما يكتبه هو أو غيره، والثقافة عنده أخذ ورد، وما كل ما يكتب حق لا يرد.

في صيف سنة1937 أوفدتني إدارة "مجلة الشهاب" مندوبا متجولا لها في جنوب عمالة قسنطينة ابتداء من مدينة "الخروب" فخط "عين مليلة"

و"عين ياقوت" إلى مدينة باتنة ودائرتها: سريانة، مروانة، نقاوس، باريكة والقرى التابعة لها، وإلى خنشلة، قايس، فم الطوب وجميع قرى الأوراس ثم الزيبان ووادي ريغ ووادي سوف ووادي ميزاب، لجمع الاشتراكات والدعوة للمجلة وتكوين مشتركين جددا لها.

فالتقيت لحسن حظي بالشيخ حمزة بوكوشة هنالك في وادي سوف جاء زائرا لمسقط رأسه، فأمرني بالاختفاء ومنعني من الظهور قائلا: جئت في وقت غير مناسب، فالسلطات العسكرية الحاكمة هنا تتحرش بالمصلحين وتحصي عليهم أنفاسهم وتتبع خطواتهم، وتحاسبهم على النقير والقطمير بعد زيارة وفد "جمعية العلماء" الذي دعاه واستضافه الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي الشريف رئيس الزوايا القادرية بالجزائر. وكان الوفد يتركب من المشايخ: ابن باديس والإبراهيمي والميلي والتبسي. فألقى المشايخ الدروس هنالك وأسدوا النصائح لأول مرة في هذه الربوع، واحتكوا بالشعب وخاطبوه واعظين مرشدين.

ولكن السلطات العسكرية الحاكمة، وأتباع الطريقة التيجانية ضاقوا ذرعا بزيارة هذا الوفد، واعتبروها تحديا مكشوفا لهم ولنفوذهم في هذه الأصقاع الخاضعة لهم. فبدأوا - بعد رجوع الوفد- يتحرشون ويتعقبون من يشتبه فيه أنه من أتباع جمعية العلماء.

وألقى القبض بالفعل على الشيخ عبد العزيز الداعي لهذا الوفد، وعلى الشيخ عبد القادر الياجوري الداعية الكبير المتحمس الثائر، وعلى الشيخ علي بن سعد العالم المتخرج من الزيتونة والعضو العامل بجمعية العلماء وعلى المصلح الكبير التاجر الخير نصير الإصلاح والمصلحين عبدالكامل،

وأُودعوا السجن. وما تزال التتبعات جارية مع كل من اتصل بهم وكلمهم.

لذلك طلب مني الشيخ حمزة - ليعفيني من مهمتي- أن أعطيه قائمة أسماء مشتركي "الشهاب" في الوادي ليتصل بهم ويجمع لي مبالغ اشتراكهم مشكورا قائلا:

- "ولا تطمع في زيادة مشتركين جدد آخرين، لأن العامة الآن في خوف وحذر من الاتصال بالعلماء وأتباعهم مخافة معاقبتهم من الحكام" ثم قال:

- "يجب أن نتنكر في ألبستنا: الشاش والقندورة والبرنوس، وتختفي ولا تظهر في النهار، وإن شئت خرجت مع بعضنا في الليل متنكرا في تلك الألبسة حتى لا تراك عيون جواسيس الحاكم العسكري وعملاؤه، وكذلك خصوم الإصلاح من أتباع التيجانية".

وكذلك فعلت في "الوادي" امتثالا لنصائح الشيخ حمزة بوكوشة وإرشاداته. فلم أتعرض لسوء من منْعٍ أو طرد أو سجن، والفضل كل الفضل للشيخ حمزة بارك الله لنا فيه.

وفي سنة 1946 زارني الشيخ حمزة بوكوشة بصفته المراقب العام إذ ذاك لجمعية العلماء، وأنا مدير لمدرستها في "غيلزان" بعمالة وهران، وقال لي: لقد رشحك الرئيس الشيخ البشير الإبراهيمي لإدارة مدرسة "دار الحديث" بتلمسان ووافق المجلس الإداري للجمعية على ذلك بالإجماع وأخبروك بذلك وأنت تتعذر وتتباطأ وتمانع فلماذا..؟!

قلت:

- لست أهلا لهذا المنصب الخطير إنَّ استخلاف الإبراهيمي ليس بالأمر السهل الهيّن، وفي تلمسان بالخصوص... وأنا أخشى عدم النجاح هنالك، ولذلك فأنا أرجوكم إعفائي من هذه المهمة واتركوني في هذه المدرسة التي أشرفتُ على إدارتها من يوم افتتاحها في سنة 1943 إلى اليوم.

قال:

- أنت كفء وخبير بالتعليم المدرسي مشهود لك بهذا عند الجميع.

قلت:

- التعليم شيء، والإدارة شيء آخر، زيادة عن استخلاف الإبراهيمي وخاصة في مركزه بتلمسان!

قال:

- يجب أن تستعد وتذهب، ولا تخيب أمل الجمعية فيك.

قلت:

- أنا خائف من عدم النجاح، فلا تكلفوني ما لا أطيق.

قال:

- اتكل على الله واحزم أمرك ولا تتأخر.

وما عاد إلى العاصمة حتى جاءت برقية تأمرني بالتهيؤ والاستعداد للسفر وتقول: نحن قادمون بعد يوم أو يومين لأخذك معنا إلى تلمسان.

وجاءت سيارة الجمعية، وفيها المشايخ: الإبراهيمي والتبسي وخير الدين، وقالوا:

- هلمَّ معنا لنقلك وتنصيبك مديرا لمدرسة دار الحديث،

وهذا قرار لارجعة فيه.

قلت:

- أخشى أن لا أكون في المستوى المطلوب المنتظر مني.

قال الشيخ البشير:

- تهيُّبك وتخوفك هما أساس النجاح إن شاء الله فتوكل على الله ولا تجبن.

قلت:

- إن كان ولا بد فأنا ألتمس منك حضرة الشيخ شيئا واحدا.

قال:

- ما هو؟

قلت:

- أن تضمن لي عدم تدخل أعضاء جمعية (دار الحديث) في شؤون إدارة المدرسة، لأن فضول بعض أعضاء الجمعيات المحلية للمدارس وتدخلهم في شؤون التعليم والتسيير والإدارة أحيانا يفسد على المدير أعماله، المسؤول عنها أمامكم وأمام الرأي العام.

قال الشيخ:

- هذه أول خطوة في طريق النجاح إن شاء الله، وأنا أضمنها لك، فاطمئن سأحول بينهم وبين التدخل في عملك بالمدرسة وإدارتها.

قلت:

- ولهم عليَّ لا أتدخل في شؤونهم، ولا أشتغل في تلمسان بغير المدرسة.

قال:

- أنصفت وعدلت.

وكان الشيخ حمزة يزورني في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات، وأنا في تلمسان عندما كان هو مندوبا تجاريا لشركة "آمال" للتجار المسلمين التي أنشأها السيد عباس التركي وجماعة وكانت نواتها الأولى "جمعية التجار وأصحاب المعامل المسلمين" لعمالة قسنطينة، وأصبحت شركة "آمال" أكبر وأوسع على مستوى الوطن لها فروع ومندوبون في كل عمالة.

والشيخ حمزة تابع لفرعها بمدينة وهران يمثلها في القطاع الغربي لوطننا، فيزورني كلما جاء إلى تلمسان في مهمات تلك الشركة. والشيخ بوكوشة - لمن لا يعرفه- تعاطى بعض الأعمال الحرة في فترات من حياته كالصحافة والتجارة والمحاماة.

فقد أسس جريدة "المغرب العربي" بوهران مع بلة محمود سنة1937، وتولى بوكوشة رئاسة تحريرها[1] وكذلك جريدة "الليالي" مع ابن بلده الشيخ علي بن سعد التي صدرت في العاصمة بعد تعطيل الأولى وكلا الجريدتين لم تعمرا طويلا. كما اشتغل كثيرا في إدارة تحرير جريدة "البصائر" لجمعية العلماء، مع توفيق المدني وباعزيز بن عمر وأحمد سحنون، وكان يواصل الكتابة فيها وفي غيرها.

---

1. وهي غير جريدة المغرب التي ظهرت بعد عشر سنوات من بروز الأولى، وهي للأستاذ محمد السعيد الزاهري بالعاصمة.

أما التجارة فقد نشأ عليها صغيرا مع أبيه الشيخ البشير في "بسكرة"، ثم تعاطاها وحده بالعاصمة، فلا عجب أن يعود إليها في الأربعينات عند شركة "آمال" في وهران.

يقول فيه أحد أصدقائه الأديب القاص الساخر أحمد رضا حوحو: "حمزة بوكوشة تاجر أديب تجارته هواية لا احتراف، ولذلك نجده في الخريف تاجر تمور، وفي الشتاء تاجر قدور، وهو يمارس هاتين التجارتين على طريقته الأدبية. فلا تعجب إذا قلت لك: إن حرفة الأدب قد أفسدت عليه تجارته[1] ويقول في مناسبة أخرى: "تاجر لا يحسن التجارة، ولا يؤمن بها اشتغل بها خطأ، واستمر في هذا الخطأ عن إصرار وعناد..وخير له أن يكون أديبا ناجحا من أن يكون تاجرا مفلسا"[2].

وأما عن حرفة الأدب التي أشار إليها حوحو آنفا، فمعلوم لدى قراء العربية أن بوكوشة أديب متميز، اشتغل بالأدب طول حياته كناقد وكاتب مقالات وبحوث أدبية واجتماعية وسياسية وتاريخية، يمضيها باسمه الصريح غالبا، وأحيانا بإمضاءات مستعارة. ومعظم القراء عرفوه ناثرا فقط، ولم يعلموا أنه شاعر أيضا.

أطلعني على ديوان شعره من نحو سنتين أو ثلاث قبل وفاته مخطوطا في كراسة بخطه هو، وبعضه مضروب على أوراق مرقونة داخل تلك الكراسة، جمع في هذا الديوان ما تيسر له من شعره الموزع في صحف

---

1. جريدة (الشعلة) عدد 18 بتاريخ 13. 04. 1950.
2. جريدة (البصائر) عدد 363 بتاريخ 23. 04. 1954.

تونس والجزائر، دفعه إلي قائلا:

((طالما حرضتني على جمع شعري وطبعه في ديوان، وتثاقلتُ لأنه غير مكن لي العثور على كل الصحف التونسية والجزائرية التي نشرت فيها. وكنت تقول لي: "اجمع ما تيسر لك منه واطبعه، ولو لم يكن كل شعرك". فإليك الآن ما جمعت منه، فأجل فيه نظرك وقل لي إن كان يصلح أن يقدم للطبع "فتسلمت المخطوط شاكرا مبتهجا.

وبعد الاطلاع عليه وضعت له تقديما أو مقدمة، وشجعته على الطبع، فقال أنت أدرى بالطابعين والناشرين اليوم، فتولَّ أنت القيام بهذه المهمة مع الطابعين. وبعد محاولات مع بعضهم - وهم تجار قبل كل شيء لا يهمهم سوى الرواج والربح يقرؤون لكل مخطوط يقدم إليهم ألف حساب وحساب قبل النظر في القيمة العلمية والأدبية للكتاب- قالوا إن سوق الشعر كاسدة غير نافقة، ولا يمكن أن نطبعه لكم إلا على حسابكم وعلى مسؤوليتكم، تدفعون أنتم ثمن الطبع وتتولون نشره وتوزيعه...!)).

- **بعض ما عمله وتعرض له من اضطهاد:**

في سنة1932 عينته "جمعية الإصلاح" بمدينة دلّس للتعليم وإدارة مدرستها بتزكية من الشيخ الطيب العقبي، وفي سنة 1936 انتقل منها إلى مدينة تيزي وزو في القبائل الكبرى، فمنعته السلطات الفرنسية هنالك، بحجة أنه عربي أجنبي عن المنطقة، ويعلم لغة أجنبية.. كما تعرض للمتابعة بمسقط رأسه في حوادث سوف سنة 1937 لأنه من أتباع جمعية العلماء.

وتعرض للسجن والاعتقال في حوادث ماي 1945م، وفي حرب التحرير الجزائرية قضى قرابة العامين ابتداء من سنة 1956 بين معتقل "وادي سار" و"بول غزال"، ومعتقل الضاية "بوسوي" ككل العاملين المخلصين لبلادهم.

وفي الاستقلال بدأ العمل في وزارة الأوقاف أول إنشائها في أكتوبر 1962م، ولما أدمج المعلمون الأحرار في الإطار العام للتعليم الرسمي، وقبلهم الوظيف العمومي واعترف لهم بالأقدمية وجميع الحقوق المدنية، التحق الشيخ حمزة بوزارة التربية والوطنية كأستاذ في ثانوية عمر راسم ثم في ثانوية عقبة بالعاصمة. وتابع دراسة الحقوق في الجامعة على كبر سنه لما أنشأت الدولة "معهد الحقوق والعلوم السياسية والإدارية" سنة 1968 وأحرز فيه على شهادة الليسانس في الحقوق سنة1971.

وفي سنة 1972 تعاقد مع "وزارة العدل" وعين مستشارا في الغرفة المدنية. وفي سنة 1980 ترك الاستشارة وتعاطى المحاماة في "المجلس الأعلى للقضاء" أوما يسمى "بمحكمة النقض والإبرام".

إلى جانب ذلك كله كان عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى من يوم تأسيسه في عهود رئاسة المشايخ: الصديق سعدي ثم العباس بن الشيخ ثم أحمد حماني، وشارك في نشاطاته ومهماته، ومنها أننا انتُدبنا أنا وإياه لتمثيل المجلس الإسلامي في ملتقى الأيام الدراسية "للحركة السلفية في المغرب العربي" المنعقد في مركز الحسن الثاني للملتقيات الدولية في مدينة "أصيلة" قرب "طنجة" أيام 16و17 و18 شعبان من عام1409هـ الموافقة لـ24 و25 و26 مارس سنة 1989م.

وكان الملتقى تحت إشراف "الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي" و"جمعية المحيط الثقافية بأصيلة" الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي تحت الرعاية السامية لعاهل المغرب "الملك الحسن الثاني".

فشارك الشيخ حمزة بوكوشة بمحاضرة عن ابن باديس كقطب من أقطاب السلفية في المغرب العربي في العصر الحديث.

وشاركتُ أنا بمحاضرة عن ثلاثة نماذج من أقطاب السلفية في الجزائر: الشيخ سعادة الرياحي صاحب جيش السنة في الزاب الجزائري في أوائل القرن الثامن الهجري، وعبد الرحمن الأخضري في القرن العاشر الهجري بنفس المنطقة، وهو أشهر من نار على علم كما يقال بتآليفه الكثيرة الشهيرة، والسنوسي الكبير محمد بن علي الخطابي الحسني الإدريسي مؤسس الطريقة السنوسية بليبيا المعروفة في القرن الثالث عشر الهجري، وهو من مواليد مستغانم في القطاع الغربي لبلادنا وفيها وفي تلمسان نشأ وتعلم.

• الكاتب الشاعر الناقد بوكوشة[1]

أستاذنا حمزة بوكوشة من شيوخنا الأدباء النقاد، شاعر وناثر، وفقيه إسلامي متمكن، وحقوقي مدني ضليع، أمد الله في عمره ونفعنا بعلمه وبركته، كان عضوا في "المجلس الإسلامي الأعلى" و"المجلس الأعلى للقضاء" بالعاصمة إلى أن أحيل على المعاش وصار محاميا حرا.

تعاطى الشعر في شبابه الباكر، وكان ينشر إنتاجه في الصحف التونسية عندما كان طالبا في جامع الزيتونة بتونس في أواخر العشرينات. ولايكاد يخلو أسبوع دون أن تظهر له قطعة شعرية أوقصيدة أومقال أوخاطرة.

وقد لازم النشر في جريدة "الوزير" التونسية بالخصوص من سنة1927 إلى سنة1935م، أي حتى بعد تخرجه من المعهد المذكور وعودته إلى الجزائر، فكان يمدها بنفحاته، وكأن صلة حميمة قد توطدت بينه وبين هذه الجريدة وصاحبها.

انخرط الشيخ حمزة بوكوشة الحاصل على شهادة التطويع من الزيتونة في الحركة الإصلاحية من يوم ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في05 ماي1931، وشارك في جميع ميادينها: في التعليم المدرسي بدلس وقسنطينة، وفي التعليم المسجدي بالجامع الأخضر وفروعه بقسنطينة مساعدا لابن باديس وأعوانه، وفي دروس الوعظ والإرشاد بعدة أماكن، والتجول لفائدة الجمعية عندما كان مراقبا لها.

---

1. مجلة (أضواء) الأسبوعية 327 بتاريخ 01 مارس 1990.

وشـارك في الحركـة الثقافيـة والأدبيـة بالخـصوص بالكتابـة فـي الصحف الإصلاحية والوطنية. ويبدو أنـه انتقل في هـذه المرحلـة مـن حياتـه إلى الكتابة النثرية أكثر من كتابة الشعر التي عرف بها في شبابه.

ومعظم كتاباته النثرية وأشهرها ما كان ينشره في جريدة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين قبل الحرب العالمية الثانيـة وبعدها ، وفي بعض الصحف الإصلاحية الأخرى مثل "الشهاب" لا بن باديس، و"المرصاد" و"الثبات" لمحمد عبابسة الأخضري، و"الأمة" لأبي اليقظان و"الليالي" لعلي بن سعد و"المغرب العربي" له.

وكان عضوا نشيطا عاملا في المكتب الإداري لجمعية العلماء وإدارة تحرير"البصائر"، كما كان أحد الموفدين لها إلى فرنسا لتعليم الجالية الجزائرية هنالك سنة1937 ، وكان مقر عمله مدينة "ليون".

امتاز الأستاذ بوكوشة بين أدبائنا بالنقد الأدبي والاجتماعي، فكان يحرك السواكن في الساحة الأدبية والاجتماعية بآرائه الجريئة وتساؤلاته المحرجة للبعض، فينفض الغبار الراكد تارة، ويثير العواصف والزوابع تارة أخرى، فيعجب به قوم ويغضب منه آخرون، شأن كل ناقد بصير.

وكان مما لفت نظري إليه في أواسط الثلاثينات وأواخرها - وأنا أتابع دراستي في الجامع الأخضر بقسنطينة- هذه الشجاعة الأدبية النادرة في ذلك الوقت بين كتابنا ومثقفينا. فقد كان جريئا في إبداء رأيه الذي يؤمن به، لا يداري ولا يماري. ينقد ابن باديس والطيب العقبي ومحمد العيد، وأي قمة من قمم الحركة الإصلاحية ومثقفيها، كما ينقد رؤساء الضلال من مشايخ الطرق والزوايا المنحرفين، وكذلك زعماء السياسة

المنحرفين، فضلا عن غيرهم، يكتب باسمه الصريح غالبا وأحيانا قليلة بإمضاء مستعار. انتقد مرة ابن باديس لما أمضى مقالا واحدا له "بابن باديس الصنهاجي" وانتقد الفضيل الورتلاني الذي يمضي مقالاته بـ"الفتى القبائلي" وكذلك باعزيز بن عمر الذي يمضي مقالاته بـ"الفتى الزواوي" ونعى عليهما هذا التعصب العنصري المقيت.

ولأضرب مثلا لشجاعته في النقد الأدبي مع قمة من قممنا العلمية والثقافية فأقول: كانت مجلة "الشهاب" المحافظة المحترمة كصاحبها العلامة الإمام ابن باديس، نشرت مساجلة أدبية غزلية لبعض شعرائنا المصلحين، قدمها صاحب المجلة بما يلي:

"اجتمع الأساتذة الأدباء: جلول البدوي وأحمد سحنون ومحمد العيد في أحد المنتزهات الجميلة بالعاصمة الجزائرية، فمرّ أمامهم ما حرك شاعريتهم بالأبيات التالية: وكأنهم خاطبوا في ذلك الشخص المرئي شخصا آخر غير مرئي" وذكر المساجلة الغزلية بتمامها[1]. فانتقد الأستاذ بوكوشة الجملة الأخيرة من تقديم الشيخ ابن باديس وقال:

- "بل رأوا شخصا آدميا من لحم ودم فتغزلوا به تغزلا عفيفا نظيفا"، وشنّها حملة على إمام المصلحين وسيد العلماء والأدباء الملتزمين، رافضا توجيهه لقراء مجلته، فارضا عليهم ذوقه وفهمه لهذا الشعر الغزلي[2].

1. الأبيات في مجلة (الشهاب) جزء 3 مجلد 14 ص 114.
2. انظر المقال بطوله في (البصائر) عدد 129 السنة 3 عام 1938.

ويتقبل ابن باديس هذا النقد بهدوء وصمت، وبعد عددين أوثلاثة من "الشهاب"، ينشر محمد العيد "أحد أولئك الشعراء المتساجلين الثلاثة" قطعة شعرية غزلية رائعة بعنوان "أين ليلاي؟" هذا مطلعها وبعض ما جاء فيها:

أين ليلاي أينها؟ ❖ حيل بيني وبينها
هل قضت دين من قضى ❖ في المحبين دينها؟
أصلت القلب نارها ❖ وأذاقته حينها
روّعتني ببينها ❖ لا رعى الله بينها[1]

...الخ فيعلق الشيخ ابن باديس على هذا الشعر بقصة رواها من كتاب "الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني"، فحواها أن أحد الشعراء من الصحابة رضي الله عنهم نظم شعرا غزليا، فلامه بعضهم في ذلك فقال الصحابي مُقسما أنه إنما تغزل في قوس له- على عادة العرب في حبها للغزل- وقال ابن باديس: "فمن هي "ليلى" شاعرنا يا ترى؟ ليست له قوس يتغنى بها، ولكن له مروحة في الصيف، فهل يعني "بليلاي" مروحته؟..ثم يقول: إن محمد العيد الذي يشعربشعور الشعب، ويتخيل خيال الشعب لا تشغله قوس ولا مروحة، ولكن لا تفتنه - وهو البلبل الغريد في القفص- إلاّ الحرية!.. فهل يوافق على هذا بعض من ينقصهم شيء من السياسة ليفهموا؟[2].

---

1. مجلة (الشهاب) جزء 7 مجلد 14 ص 63.
2. مجلة (الشهاب) جزء7 مجلد 14 ص 64.

ولعل ابن باديس كان يعني "في جملة من يعني" بهذا البعض الأستاذ بوكوشة الذي انتقده في فرض رأيه وفهمه على قراء مجلته، ورغب منه أن يترك الحرية للقراء يفهمون الشعر كما يشاؤون.

كنّا نترقب من أستاذنا حمزة بوكوشة أن يطبع ديوان شعره، كما فعل غيره، وفاتحناه في ذلك مرات، فكان يعتذر بأن شعره غير مجموع، ويصعب عليه التقاطه من الصحف المتفرقة في تونس والجزائر، وهي نادرة الوجود، فنقول له: اطبع ما يتجمع لديك ولا عليك.

واستطاع أخيرا أن يجمع ما تيسر له وقدمه لي في ديوان مخطوط جمع نحو الخمسين لحد الآن بين قطعة وقصيدة، وهو ساع في تقديمه إلى الطبع وفقه الله وأعانه.

وهذا القدر كاف لإعطاء صورة عن شعره للباحثين والدارسين، وهو في نفس الوقت صورة من أدب وشعر الحركة الإصلاحية والوطنية قبل وبعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على اختلاف درجات الأدباء وتمكنهم من ناصية الشعر.

ولعل المشايخ الأدباء: جلول البدوي وموسى الأحمدي وأحمد بن ذياب ومحمد الشبوكي وزهير الزاهري وعمر شكيري، يفعلون فعله، فيجمعون ما تفرق من شعرهم في دواوين جامعة، كما فعل من قبل: أبو اليقظان ومحمد العيد وأحمد سحنون ومفدي زكرياء والسائحي وبلعقون وابن رحمون ومعاش وسعد الله والخرفي وخمار.وو..الخ.

والرجاء من أستاذنا الأديب الناقد والكاتب الممتع أن لا يبخل علينا بعد ذلك بجمع مقالاته الكثيرة وبحوثه المتنوعة القيمة المنشورة

في الصحف الجزائرية أو ما يتيسر له منها، ويطبعها في كتاب أوكتابين أوثلاثة بعنوان واحد أوأكثر، حسب موضوعاتها، كما يفعل غيره من كتاب اليوم. فهو ناثر أكثر منه شاعر وفي مقالاته علم جم وفوائد كثيرة لا غنى لنا عنها.

ومقالاته في"الشهاب" و"البصائر" بالخصوص متوفرة لوجود مجموعاتها المسفرة عند البعض، أو مقالاته في الجريدتين اللتين أشرف على تحريرهما: "المغرب العربي" بوهران و"الليالي" في الجزائر العاصمة.

وقد أشاد الشاعر الموهوب مبارك جلواح العباسي بجريدة بوكوشة "المغرب العربي" التي أصدرها من مدينة وهران سنة 1937 منّوها بها وبصاحبها في قصيد له طويل نشر في العدد الرابع منها بعنوان "أغمد الصمصام وانض القلما" بتاريخ: 18. 06. 1937 م يقول في طالعها:

حيّ نجما لاح في غرب الحما

يُلبس الأرض جمالا والسما

إلى أن يقول:

يا لها مأثرة فاز بها

(حمزة) المفضال بين العظما

أطلع النجم من الغرب ومن

عادة الغرب يواري الأنجما

إيه يا(حمزة) ذي معجزة

أنت مبديها لسكان الحمى

أنبيٌّ أنت بعـــد (المصطفـــى)
جئت بالمغرب تهدي الأمـــمـــا
أم أتـــاك الله من حكمتـــه
بالذي تعجز عنه الحكـمـا؟
فتجليـــت لنا فـــي صـــورة
أدهشت منا اللبيـــب الفهمـــا
هكذا العرفان يولـــي أهلـــه
عـزّة دون الـــورى و الشـمـــمـــا
قل لمن بالسبق قـــد رام العـــلا
أغمد الصمصام وانـض القلما

مبارك بن جلواح

فإلى الأمام يا حمزة الهمام، ولا تبخل علينا بما عندك من إنتاج ثري غني. وفقك الله وأعانك وأمدَّ في أنفاسك حتى تتحفنا وتمتعنا بما تجود به من عطائك القيم. والسلام عليك من أخيك وتلميذك:

محمد الصالح رمضان.

• وفاة الشيخ حمزة بوكوشة:

التحق بالرفيق الأعلى يوم الجمعة 14 جمادي الأخيرة عام 1415هـ الموافق ليوم: 1994.11.18 بعد مرض لم يمهله، وشيعت جنازته بعد غد إلى مثواه الأخير بمقبرة القطّار بالعاصمة، ودفن إلى جانب ابنه البكر بشير الذي سبقه إلى لقاء ربه، وابنه وصلّى عليه رفيق دربه الشيخ علي المغربي وتكلم عنه الأستاذان: أحمد حماني ومحمد الطاهر فضلاء.

• من آثار الشيخ حمزة المخطوطة:

1. "موجز تاريخ الجزائر في القديم والحديث" طالعته وعلقت عليه.

2. ديوان شعره بعنوان "خواطر الشباب والمشيب" طالعته ووضعت تقديما له.

3. "ما رأيت وما رويت" حدثني عنه وهو مذكرات خاصة به ولم أطلع عليه

4. "الشيخ الهاشمي الشريف وانتفاضة سوف سنة 1918" من تاريخ ما أهمله التاريخ.

5. "من أقطاب السلفية في العصر الحديث بالجزائر العلامة ابن باديس" محاضرة ألقاها في المغرب الشقيق.

الأديـب الشهيـد

رضـــا حوحو

(1956 -1911)

الأديب الشهيد رضا حوحو

• نشأة حوحو وحياته:

ولد أديبنا الاجتماعي أحمد رضا حوحو سنة 1911م في قرية من قرى الزاب الشرقي، هي بلدة "سيدي عقبة" مثوى جثمان الفاتح العربي الكبير خالد الذكر سيدنا "عقبة بن نافع الفهري" رضى الله عنه ، أحد قادة الفتح الإسلامي الأوائل الذي جاءنا بالإسلام وحرّر رقابنا من الروم والرومان، وحرر عقولنا من عبادة الشرك والأوثان. ولذلك حملت هذه البلدة الطيبة اسمه، فدعيت "سيدي عقبة"، وهي تبعد عن مدينة بسكرة قاعدة الزيبان بنحو عشرين ميلا إلى الشرق منها.

وكما أن "جامع سيدي عقبة" في القيروان بالجنوب التونسي، يعد أجل وأقدم أثر عربي إسلامي في إفريقيا، كذلك يعتبر"مسجد سيدي عقبة" المقام على ضريحه في "بلدة سيدي عقبة" أجل وأقدم أثر إسلامي في الجزائر.

ما يزال محجا للزوار والسياح من الجزائريين ومن الأجانب، وقد أقامت أخيرا وزارة الشؤون الدينية خارج بلدة سيدي عقبة معهدا إسلاميا كبيرا لتخريج الأئمة يحمل اسمه تخليدا لذكرى الفاتح العربي الإسلامي العظيم.

وقد اشتهر بالانتساب إلى هذه البلدة الكريمة شخصيات كبيرة في القديم وفي الحديث، اذكر منهم في عصرنا شخصيتين شهيرتين في الجزائر وفي الخارج هما: "الشيخ الطيب العقبي" داعية الاصلاح الديني

في الجزائر، وأحد أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الثلاثة في الثلاثينات: ابن باديس والعقبي والابراهيمي، وشخصية أخرى في ميدان آخر من ميادين العلم والحياة، وهي شخصية الطبيب النطاسي الشهير الأستاذ "الدكتور علي العقبي" أحد الرواد الأوائل للطب الجراحي الجزائري الذي يتمتع بشهرة واسعة في المغرب العربي، وفي الغرب الأروبي.

وغير هذين من الرجال كثير، فالبلدة منبت نبوغ وعبقرية، ولا غرو أن يكون أديبنا حوحو منها، وقد أشتهر قبل حوحو في العشرينات أديب آخر من نفس البلدة ومن نفس العائلة وهو الأديب "العزوزي حوحو". رحم الله الجميع رحمة واسعة..

وكانت "سيدي عقبة" مركز إشعاع ديني وثقافي، تخرج حفاظ القرآن والفقهاء ومثقفي اللغة العربية بالزيبان، مثل زوايا: الهامل وطولقة والخنقة.

• تعلّمه:

في هذه البلدة الطيبة نشأ أديبنا أحمد رضا كما ينشأ أبناء الجنوب في القرى والمدن الصحراوية، وترعرع في أحضان تلك العائلة الماجدة عائلة "حوحو"، وهي من أشهر عائلات البلدة علما وفضلا وجاها وثورة، وكان أبوه شيخ بلدة سيدي عقبة، فلما بلغ الطفل سن التعلم "الرابعة أو الخامسة" أدخله والده الكتاب فحفظ ما شاء الله أن يحفظ من كلام الله العزيز، وتعلم ما تيسر له أن يتعلم من مبادئ الاسلام والعربية على شيوخ البلدة وفقهائها.

كما التحق في سن السادسة من عمره بالمدرسة الابتدائية الفرنسية فتعلم اللغة الفرنسية ومبادئ العلوم والمعارف بها على المعلمين الرسميين حتى الشهادة الابتدائية التي أحرز عليها في سنة 1922أو 1923م.

وبعد أن تحصل على الشهادة الابتدائية الفرنسية، أرسله والده إلى مدينة سكيكدة في الشمال على ساحل البحر، حيث واصل تعلمه التكميلي بالفرنسية إلى أن نال الأهلية "البروفي" في سنة 1928، ولأمر ما لم يتابع تعليمه الثانوي في الثانويات الفرنسية بعد نيل شهادة التكميلي التي تؤهله لذلك.

وعاد إلى الجنوب ليشتغل كعامل بسيط في البريد والمواصلات في منطقته، وبذلك تَسَنَّى له أن يطلع على أنماط الحياة في وطنه في أول عهده بالحياة، في بيئتين مختلفتين بيئة قروية صحراوية وبيئة حضارية تلية ساحلية، وفي مجتمعين متباينين: مجتمع عربي إسلامي خالص "في الصحراء" ومجتمع أوروبي مسيحي في معظمه "بالتل". ورأى الفروق الكبيرة الصارخة في وطنه بين هذين المجتمعين، حيث يتمتع السكان في سكيكدة والمدن التلية والساحلية بشيء من الحرية والديمقراطية والتفتح، في وقت يرزح فيه سكان الجنوب في "سيدي عقبة" وغيرها من القرى والمدن الصحراوية، تحت وطأة الأحكام الزجرية العرفية في نظام الحكم العسكري الاستبدادي، الذي سلطه الاستعمار الفرنسي على سكان الجنوب من أهل الصحراء طيلة العهد الفرنسي بالجزائر.

أمضى حوحو بضع سنوات يتمتع بالهدوء والراحة والاستقرار، يشتغل بوظيفته في إدارة البرق والهاتف، تزوج أثناءها بإحدى كريمات بعض

الأسر الفاضلة، كان يطالع الصحف والكتب في أوقات فراغه، ويحضر الدروس المسجدية لبعض شيوخ بلده ليتفقه في دينه ولغته، إلى أن فُوجئ ذات يوم من سنة 1934 بأبيه يخبره والأسرة كلها بالاستعداد للسفر ومفارقة العشيرة والبلد.

• الهجرة والاغتراب:

وفي عز شبابه في عام 1934 أو1935 ذاق آلام الهجرة والاغتراب عن مأوى العشيرة والأحباب، فسافر إلى الحجاز مع والديه وأخوته وزوجته، كان هذا السفر باسم الحج بالنسبة للسلطات، ولكنه في الحق والواقع كان بنية الهجرة ومغادرة البلاد نهائيا.

كان ذلك نتيجة صراع مرير بين والد أحمد رضا حوحو "شيخ البلدة"، وبين أحد رؤساء الأهالي الكبار"الباشا آغا" من الطغاة المستبدين المتعاونين مع الاستعمار ضد بلدهم ومواطنيهم. فاضطر الوالد إلى مغادرة الوطن الحبيب بجميع أسرته إلى المملكة العربية السعودية، ليستقر بها ويمضي بقية حياته فيها فرارا من ظلم الاستعمار ومكائده، وظلم وعدوان أعوانه من المواطنين. وظلم ذوي القربى أشد مرارة من ظلم العدو الأجنبي.

وفي المدينة المنورة حيث استقرت العائلة، أتم أحمد رضا معلوماته العربية في معهد العلوم الشرعية، حيث توسع في العلوم العربية والدينية، وتحصل على شهادته العليا سنة 1938 بامتياز. وعين مدرسا فيه لتفوقه على أقرانه.

أقام في الحجاز نحو عشر سنوات، قضى شطرها الأول في التعلم والتعليم بالمدينة، وشطرها الثاني ابتداء من سنة1940 في العمل بإدارة البريد في مكة، وظيفته الأولى التي تمرس عليها في الجزائر.

• نشاطه الأدبي في الحجاز:

في تلك الفترة بدأ نشاطه الفكري والأدبي يظهر في الصحف والمجالس، ولعل أول مقال نشر له كان سنة 1937 في مجلة "الرابطة العربية" لأمين سعيد التي كانت تصدر بالقاهرة، وكان بعنوان "الطرقية في خدمة الاستعمار"، كان له صدى كبير في الأوساط الطرقية بالمشرق والمغرب، وواصل الكتابة بعد ذلك في مجلة "المنهل" السعودية المكية، وغيرها من الصحف والمجلات العربية.

وكانت مجلة "المنهل" بالخصوص هي ميدانه الواسع للتعبير عن آرائه الأدبية وأفكاره الاجتماعية، حيث ظهرت له فيها عدة مقالات ومترجمات أدبية واجتماعية وبعض القصص والبحوث، منها على سبيل المثال: "هل يأفل نجم الأب؟" "ابن الوادي"، "الأديب الأخير".

وكان يترجم للمجلة ما يروق له من روائع الأدب الفرنسي، ففتح بذلك لقراء "المنهل" نافذة للتعرف على الأدب الغربي والفرنسي منه بالخصوص، وفي هذه المجلة اشتهر حوحو كأديب وقاص اجتماعي، ووصل صيته إلى الجزائر قبل أن يعود إليها.

• الرجوع إلى الوطن:

في سنة 1945 رجع من الحجاز إلى الجزائر- بعد وفاة والديه- مارا بمصر أقام بها شهرا كاملا ينتظر باخرة تتجه إلى الجزائر، وكانت حركة البواخر مضطربة في البحر الأبيض المتوسط في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فاضطر بعد اليأس إلى ركوب باخرة في اتجاه فرنسا، واعترضته صعوبات جمة في هذه الرحلة ما كان يتصورها، زادته علما وخبرة بمشاكل الحياة وأتعابها فزادته تبرما بالحياة وبالسلطة الفرنسية.

وفي إقامته بمصر تعرف على شخصيات ثقافية علمية وأدبية بالخصوص، منها على سبيل المثال: رجلان عظيمان جزائريان كانا يقيمان في القاهرة: العلامة الشيخ الخضر بن الحسين، والداعية الإسلامي الشيخ الفضيل الورتلاني، وكانا في قمة مجدهما وشهرتهما.

وبمجرد استقراره في وطنه انضم إلى حركة "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" التي كان يتابع نشاطها وأخبارها وهو بالحجاز، فهي أقرب هيئة ثقافية تقدمية تناسب أفكاره التحررية، وكانت مدينة قسنطينة مهد النهضة الشاملة ومركز البعث واليقظة والنشاط، فاختارها مقرا ومقاما، وعمل مديرا بها لمدرسة "التربية والتعليم الإسلامية" أم المدارس الإصلاحية بالقطاع الشرقي، وهي من مؤسسات رائد النهضة الشيخ ابن باديس، بقي فيها نحو السنتين، ثم انتدب لإدارة مدرسة شاطودان سابقا "شلغوم العيد حاليا" التابعة لجمعية العلماء، لفترة زمنية قليلة.

ولما تم إنشاء "معهد عبد الحميد بن باديس" عاد إلى مدينة قسنطينة سنة 1947 ليتولى منصب الكاتب العام للمعهد، وانتخب عضوا عاملا

فـي المجلس الإداري لجمعيـة العلمـاء، وعـضوا في مكـتـب "لجنـة التعليـم العليا" التي تشرف على مدارس الجمعية للتعليم العربي الحر بعد تكوينها سنة 1948، واستمر يعمل في منصبه كأمين عام للمعهد الباديسي، إلى أن متعه الله بالشهادة، كما سنرى ذلك فيما بعد.

وتعتبر هـذه الفـترة مـن حياتـه الـتي قـضاها بقـسنطينة "قلـب الـوطن النـابض بالحيـاة والحركـة" أخصب سـني حياتـه نشاطا وإنتاجا وحيويـة، تفوق نشاطه الأدبي الذي عرف به في الحجاز.

• رحلاته إلى الخارج:

بالإضافة إلى رحلته الأولى إلى الشرق وعودته منه إلى الغرب الـتي لم يكتب عنها شيئا فيما أعلم، قام بـرحلات أخرى إلى فرنسا وربما إلى تونس أو غيرهما لم يكتب عنها كذلك، والرحلة الوحيدة الـتي اهـتم بهـا وكتب عنها مشاهداته وانطباعاته في سلسلة مقالات بجريدة "الشعلة" التي كان يتولى إدارة تحريرها بقسنطينة.

ففـي العطلـة الـصيفية مـن سـنة 1950 قـام برحلـة طويلـة- ضـمن وفـد منتخـب - إلى الاتحـاد الـسوفييتي ويوغـسلافيا وتـشيكوسلوفاكيا وايطاليا، وكتب عنها في جريدة الشعلة عدة حلقات من عدد "40" إلى عدد "54" الذي توقفت فيه الجريدة دون أن يستوفي حوحو الكـلام عـن رحلتـه، كانـت هـذه المقـالات بعنـوان: "عـدت مـن الاتحـاد الـسوفييتي" ليتهـا تجمـع وتطبع كاملة مع تراثه.

أما رحلته إلى باريس التي كانت قبل رحلته إلى الاتحاد السوفييتي بعام واحد، فقد كانت بسبب الحضور والمشاركة في "المؤتمر العالمي للسلم" الذي انعقد في باريس ضد الحرب، واتصل فيه بكبار الشخصيات العالمية، مثل رئيس هذا المؤتمر، العالم الفرنسي الكبير الأستاذ بييركوري، وهو من علماء الذرة الفرنسيين ومن دعاة السلم.

وسأثبت الكلمة التي ألقاها حوحو باسم الجزائر في هذا المؤتمر، في فصل "نماذج من كتابات حوحو" وكذلك فاتحة الرحلة السوفيتية.

• تنوع نشاطه الأدبي والفني:

كان يوالي الكتابة في جريدة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- قبل أن تظهر: جريدة "الشعلة" لسان حال شبيبة العلماء وبعدها- وكانت مواضيع مقالاته في البصائر: أدبية واجتماعية وسياسية متنوعة بعناوين مغرية جذابة لم يكن لنا بها عهد من قبل في صحفنا. وفي هاتين الصحيفتين اشتهر الأستاذ حوحو عند الجزائريين والشمال إفريقيين عامة، كأديب صحفي ناجح، وناقد اجتماعي بصير. كما سأتعرض إلى ذلك فيما بعد، بشيء من التفصيل عند الكلام عن إنتاجه وآثاره في الفصل التالي لهذا.

ومع هذا النشاط الأدبي الكتابي، كان له نشاط آخر فني يتمثل في الإشراف على فرقة فنية للتمثيل والموسيقى تدعى "المزهر القسنطيني" مدة من الزمن، يؤلف لها التمثيليات والمسرحيات بالفصحى والدارجة، ويضع لها الأغاني الشعبية المناسبة للأدوار، وقد يترجم أو يقتبس من روايات

ومسرحيات الأدب الفرنسي والأدب العربي والعالمي، ويشرف على تخريجها وتمثيلها بمشاركة بعض الفنانين برئاسة صديقه الدكتور ابن دالي، وكان يحسن العزف على بعض الآلات الوترية، هذه أمثلة من نشاطه الأدبي والفني.

• استشهاده:

وأخيرًا اختفى من الساحة الأدبية في الجزائر هذا الأديب اللامع، وأفل هذا النجم الساطع، من السماء المتلبدة بالغيوم المنذرة بالعواصف والزوابع، ذهب حوحو في قمة شبابه، وغضاضة إهابه، وقد بدأ ينضج ويستكمل أدوات شهرته ونبوغه. كان ذلك في مساء يوم 29 مارس سنة 1956 بقسنطينة، إثر انفجار مهول بمقر البوليس الفرنسي في "رحبة الصوف" قلب المدينة النابض بالحركة، اهتزت له المدينة كلها، وخاصة السلطات الحاكمة لأنه أودى بحياة محافظ الشرطة في الدائرة الثانية بالمدينة، واسمه "سان مرسيلي" وهو كورسي معروف بشدة حقده وبغضه للجزائريين، كان شبحًا رهيبًا للفدائيين، له شبكة مخابرات شديدة الاتصال بالأحياء العربية كثيرة النشاط تحصى على كل واحد أنفاسه وتحركاته، فيها بعض الخونة الجزائريين، كعيون وأدلاء. فهي الأخطبوط المرعب في قسنطينة وقتئذ، ففجر إعدام الكوميسار الكورسي الفرنسيين والكورسيين بالخصوص - ومعظم الشرطة منهم- وترك الانفجار خسائر باهظة في المركز المذكور وما يحيط به.

وكالعادة في مثل هذه الحوادث، تسلط السلطات: العسكرية منها والمدنية جام غضبها وحقدها على المواطنين العزل، فتنتقم منهم حبسا

وتقتيلا وتنكيلا، في المنطقة التي يقع فيما الحادث بدون تمييز بين الناس، ويكفي أن يكونوا من الجزائريين، تتسع دائرة هذه المنطقة أوتضيق بحسب أهمية الحادث ونفسية الحاكمين والمنفذين. وفي هذه المرة اتسعت الدائرة حتى شملت المدينة كلها، حيثما وجد فيها عرب، كان ذلك في عهد ولاية اليهودي العنصري "دبيش" الذي طاش عقله وذهب صوابه فأعطى تعليماته وأصدر أوامره بالقيام بالواجب الذي تقتضيه الظروف بلا شفقة ولا رحمة.

طوق الجيش الفرنسي المدينة كلها، وقام بعمليات تفتيش واسعة، ساعده فيها البوليس الفرنسي الكورسي، والمنظمات الإرهابية السرية منها والعلنية، شملت حسب ما صرحت به جريدة "لادبيش" القسنطينية نحو ثلاثين ألف مواطن حشدوا حشد السردين في ساحة الكدية قرب المحافظة المركزية للشرطة.

كان من بين عملياتهم التي قاموا بها في ذلك اليوم، أن قدم عدد من جنود المظلات المعروفين ببطشهم إلى معهد عبد الحميد بن باديس ليسوقوا من وجدوا فيه من أساتذة وطلاب وموظفين، ويحملوهم في شاحنات من نوع "ج.م.س" إلى ساحة الكدية، وكذلك فعلوا بالمراكز الخاصة بالجزائريين.

وفي منتصف الليل أو في أواخره أطلق سراح بعض المحتجزين ليعودوا إلى منازلهم سالمين. ولكن ليلقوا مصارعهم بعد ذلك في طريق عودتهم، برصاص الجند المشحون بالحقد والغضب، أو المنظمات الإرهابية في زيِّ الجند المتربصين في كل شارع لا يميزون بين جزائري وجزائري.

أمـا حوحـو وبعـض الشخـصيات مـن الأعيـان والمـثقفين الـذين يـرى الفرنسيون فيهم خطرا دائما عليهم، وطاقة حية لاستمرارية الثورة، فقد اقتحموا عليهم منازلهم في الليل البهيم، وقضوا عليهم ورموا بهم في خنـادق عميقة وآبار مهجورة، وأهالوا عليهم التراب لكيلا يعثر عليهم أحد.

وكم عثر في الاستقلال على جثث مثل هؤلاء الضحايا المعدومين هنـا وهنالك في نواح كثيرة من الوطن، وما يـزال يكتشف مـن حـين إلى حـين رفات القتلى من ضحايا البغي والطغيان.

هكذا اغتيل أديبنـا الشهيد أحمد رضـا حوحـو في تلك الليلـة الليلاء على يد المنظمة الإرهابية السرية "اليـد الحمـراء"، ولم يعثـر علـى جثمانـه، ولا أحد يعرف كيفية استشهاده، غير أن هنالك من يروي أن الذي اعتقلـه هو الشرطي الخائن المعروف باسم الداودى، أخرجه من داره في تلك الليلـة وأخذه في نحو"13" شخصا إلى قرية "الهرية"، وأعدموهم هنالـك ودفنـوهم، وأن هذا الشرطي الملعون أعدمه الفدائيون بعد ذلك.

وكان الفقيد قد اعتقل قبل هذه الحادثة بحوالي شهر، وعذب تعذيبا منكرا، ثم هدد تهديدا صريحا - كما يروى أحد أصدقاء حوحو نقـلا عنه- بأنهم سيعتبرونه مسؤولا عـن أي حـادث يحـدث بالمدينـة، وان جـزاءه سيكون حينئذ الإعدام[1]، ومن ذلك اليوم بقي ينتظر مصرعه على أيديهم. ولا سبيل له في الفرار، فهو مراقب في شبه إقامة جبرية.

---

1. رويت هذا الخبر عن الأستاذ الشيخ احمد حماني.

- رحمه الله رحمة واسعة، وهنيئا له الشهادة والنعيم والكرامة، في دار الخلد والمقامة- .

• إنتاجه وآثاره:

لأديبنا عدة آثار كتابية، منها المطبوع وغير المطبوع الذي ما يزال مخطوطا، زيادة عن إنتاجه الصحفي المتنوع الذي أشرت إليه سابقا في نشاطه الأدبي وسأتعرض لتعداد آثاره والتعريف بما أعرف منها بشيء من التفصيل فيما يلي:

1) غادة أم القرى:

هذه باكورة تأليفه، كتبها عندما كان مقيما بالحجاز، ولم تطبع إلا في سنة 1947 بالجزائر، وهي قصة طويلة أو رواية متوسطة، تتناول وضعية المرأة العربية في الحجاز وما تعانيه من حرمان الحب والعلم والحياة، وأهداها إلى المرأة العربية في الجزائر، التي لا تبعد عنها كثيرا في وضعها الاجتماعي العام.

قصتها واقعية بأحداثها وأشخاصها، أو مستوحاة من واقع محسوس معاش شاهده حوحو في ذلك الوسط المغلق المحبوس في تقاليده وأعرافه من أقدم وأحط عصور الجهل والجمود والتخلف.

وقد أمضى أديبنا شطرا مهما من شبابه - كما أسلفت في أول هذا البحث- في ذلك الوسط وتلك البيئة مكنه من أن يعطي رأيه فيه بصدق وصراحة.

2) مع حمار الحكيم:

المطبوع سنة 1953 بقسنطينة، وكان انطلاق موضوع هذا الكتاب من كتاب آخر للكاتب المصري الكبير توفيق الحكيم، يحمل عنوان "حمارى قال لي". يجري حوحو الحوار في هذا الكتاب "مع حمار الحكيم" الذي يتخيله زائرا متجولا في الجزائر، ويجعله مفكرا فيلسوفا يتعجب من بعض أوضاعنا الاجتماعية والسياسية السائدة، فيتصل به أديبنا حوحو، ويتناقش وإياه في قضايا ومشاكل الساعة، وفي شؤون سياسية واجتماعية وفكرية هامة، كفيلسوف من كبار الفلاسفة. مما يدل على إعجاب حوحو وافتتانه بكتاب الكاتب المصري توفيق الحكيم "حماري قال لي"، وتأثره به وبمعظم آثار توفيق الحكيم.

3) صاحبة الوحي وقصص أخرى:

مطبوعة سنة1954 بقسنطينة، وهي مجموعة قصص قصيرة ذاتية واجتماعية مختلفة المواضيع، لا يتصل بعضها ببعض كما في الكتابين السالفين، بل كل قصة منها مستقلة عن غيرها، يلعب فيها الحب العفيف النظيف أكبر دور، أو هو المحور الأساسي فيها، كتبها كما قال "في فترات متباعدة وظروف مختلفة"، لعل بعضها في الحجاز وبعضها في الجزائر.

4) نماذج بشرية:

طبعت سنة 1955 بتونس كحلقة في سلسلة "كتاب البعث" الشهرية، التي يشرف على إصدارها الكاتب التونسي المعروف أبو القاسم كرو،

تحتوي هذه النماذج على عدة أحاديث وأقاصيص وخواطر وذكريات، حول أنماط من الناس عرفهم الكاتب، ينطبق عليهم تماما عنوان "نماذج بشرية"، وهو كتيب لطيف - كصاحبه- في حجمه ومحتواه.

5) مسرحياته:

أعلن عن مسرحيات له وتمثيليات مثلث بالفعل في إذاعة الجزائر أو في بعض المسارح الجزائرية، مثل المسرح البلدي بقسنطينة، والمسرح الوطني بالعاصمة "الاوبرة".

- ومن هذه المسرحيات: "عنبسة" و"البخلاء الثلاثة" و"بائعة الورد" وغيرها، ولم يتح له طبعها لسبب أو لآخر، ولكن مجلة المسرح الجزائري التي تحمل عنوان "الحلقة" نشرت له مسرحية "عنبسة" في عددها الأول الصادر بتاريخ أبريل سنة 1972، أي بعد موت حوحو بخمسة عشر سنة بمناسبة إعادة تمثيلها من جديد في المسرح الوطني بالعاصمة لإحياء ذكراه بها.

- وله روايات وتمثيليات بالفصحى السهلة المبسطة التي تفهمها العامة، أو بالدارجة المهذبة القريبة من الفصحى، كان يؤلفها لفرقة "المزهر القسنطيني" بالخصوص الذي كان على صلة وثيقة به وبرئيسه الدكتور ابن دالي، بل كان هو إكسير حياتها.

قد تتعدد أسماء مسرحياته التي يعلن عنها في الصحف والنشريات، فكلما هموا بتمثيل رواية أو مسرحية أعطوها عنوانا، فإذا أعيد تمثيلها سنة أخرى أعطوها عنوانا آخر لا يخرج عن مضمونها، مثل: "سي زعرور"

تارة و"النائب المحترم" تارة أخرى، ومثل "البخيل" مرة و"سي شعبان" مرة أخرى، وهكذا: "المأمون" أو"صنيعة البرامكة" أو "ابن الرشيد"... الخ

فيحسب الناس أن النص نصان أو ثلاثة، والعنوان عنوانان أو ثلاثة، لمواضيع مختلفة بينما الموضوع واحد وإنما تعددت أسماؤه وعناوينه، لسر من أسرار المهنة التي يتقنها التجار والفنانون، وقاعدتهم في ذلك: أن لكل جديد لذة، وإن كان هذا الجديد لا يتعدى الاسم والعنوان.

6) نشاطه الصحفي:

كان للأديب حوحو نشاط صحفي هام متنوع كما أشرت من قبل ظهر في الجزائر بالخصوص في جريدتي: "البصائر" لسان حال جمعية العلماء وعامة المثقفين، وجريدة "الشعلة" لشبيبة العلماء وعامة الشباب والشعب، وكان الأستاذ حوحو يرأس تحرير "الشعلة" من يوم بروزها إلى أن توقفت في العدد"45" أي طيلة سنتين وبضعة شهور"من سنة1949 إلى سنة1951"، هذا عدا ما نشره في مجلة "إفريقيا الشمالية" الشهرية أوجريدة "المنار" الأسبوعية، أوما نشره في المشرق العربي قبل عودته من الحجاز، وخاصة في مجلة "المنهل" السعودية المكية، كما أسلفت في صدر الكلام.

ومقالاته في "البصائر" أهم وأرقى من مقالاته في "الشعلة" مثلا لغة وأسلوبا، أما مواضيعه في الشعلة وإن تنوعت واختلفت طريقة وأسلوبا وحتى محتوى عن تلك التي في البصائر أو في غيرها، فقد تنازل فيها إلى مستوى قريب من مدارك العامة والدهماء، وتمتاز بالاختصار والبساطة والتنوع والسرعة في الوصول إلى الهدف الذي يريد، بينما مقالاته في البصائر مثلا

نجدها أرفع مستوى وأعمق معنى وأرشق أسلوبا مما يكتبه في الشعلة.

فالأستاذ حوحو يتصرف في أسلوبه وفي موضوعه كما يشاء، يراعي فيه مستوى كل صحيفة وقرائها، "فالبصائر" مثلا لسان حال هيئة العلماء وخيرة مثقفي العربية، مستواها غير مستوى "الشعلة" لسان حال الشبيبة من تلاميذ العلماء وتلاميذ تلاميذهم، وهذه انتقادية شعبية بالدرجة الأولى، لا تتورع في نقدها حتى عن السباب والشتم إذا لزم الأمر، بينما الأولى متزنة محافظة، تلتزم السلوك الإسلامي والخلق المثالي، الذي يتناسب وطبيعة الهداة المرشدين، والدعاة المصلحين.

وبينما الشعلة جماهيرية شعبية تهتم بالكادحين والمنحرفين تخاطبهم بما يفهمون، إذا بالبصائر مترفة مترفعة عن ذلك، أومحافظة متزمتة، تكتب لطبقات معينة بأساليب معينة تناسبها وتناسبهم، والعجيب في حوحو أنه يتكيف مع هذه وتلك.

7) الشعر الهزلي الساخر:

للأستاذ حوحو براعة خاصة في هذا النوع من الأدب، الفصيح منه والدارج، تراه يقلب الشعر الجاد الهادف إلى شعر عابث ساخر ببراعة فائقة، غير أنه لا ينشر شيئا من هذا النوع، حفاظا منه على روح التحفظ السائدة إذ ذاك في الأوساط الإصلاحية التي ينتمي إليها، ويعمل في ميادينها. لكنه كان ينشد منه نماذج بين محبيه وعارفي أدبه بين الفينة والفينة في مجالس ومناسبات خاصة، ترويحا للنفس من عناء الجد والعمل الدائب. تفكها وتندرا مع الخلان والأقران، مثله في ذلك مثل

كبار الأدباء والعلماء الاجتماعيين المتفتحين الذين قرأنا عنهم في التاريخ، وعرفنا منهم في بلادنا وفي عصرنا أمثال: الابراهيمي والعمودي - رحمهم الله جميعا "والمؤمنون اذا خلوا صبوا"- .

8) الشعر الملحون:

ولأديبنا حوحو محاولات متكلفة في الشعر الشعبي "الملحون" غير ناجحة، كان ينشرها في جريدة الشعلة في ركن "تحت السياط نغني"، تارة بإمضائه أو بإمضاء "شاعر الشعلة"، وتارة بتوقيع آخر أو بلا توقيع، انتقدها فحول الشعر الملحون إذ رأوها ناشزة عن أذواقهم، غير مراعية لموازينهم وقواعدهم، التي يجهلها حوحو بطبيعة الحال، وقالوا له ناصحين: دع عنك هذا الميدان للفحول من رجاله، واشتغل بالميادين التي أنت فحل فارس مبرز فيها.

يبدو أن الأستاذ حوحو فتح أبوابا دائمة في جريدة الشعلة التي يتولى رئاسة تحريرها فكلما خلا ركن أو باب من الكتابة فيه سده بما تيسر له مما هو من طبعه وطاقته أو خارج عن طوقه وذوقه، والضرورات لا تبيح دائما المحذورات، لذلك وقع رحمه الله في هذه العثرات.

ولكنه كصحفي كان يعتبر ثالث ثلاثة من صحافيينا الأدباء الناجحين الموهوبين في هذا الفن الصحفي: الزاهري، والعمودي، وحوحو، وليس كل من تعاطى الصحافة صحافي ولو أفنى عمره فيها.

هذه أنواع إنتاج أديبنا الراحل ما طبع منه وما لم يطبع فيما أعلم، ويتمثل معظم نشاطه في القصة والأقصوصة، وفي الرواية والمسرحية،

ثم في المقالة الصحفية، فأكثر إنتاجه كان في كتابة القصص القصيرة والمسرحيات "التي يسميها روايات" ذات الفصلين والثلاثة، وتأتي بعدهما المقالة الأدبية، وهي ذات أشكال وأنواع، والمسرحيات كان يكتبها بالفصحى السهلة أو بالدارجة المهذبة، وما عداها فكله كان يكتبه بالفصحى.

• إلقاء نظرة عامة على إنتاجه وآثاره:

لعل هدف الأستاذ أحمد رضا حوحو فيما كتب وقدم من قصص وتمثيليات بالخصوص، هو محاولة إصلاح بعض العادات الاجتماعية الفاسدة المتواطأ عليها من قبل عامة الشعب في الحجاز وفي الجزائر، والثورة على واقع متخلف كبله الجهل والجمود والخرافة والدجل حتى بقي المجتمع يرصف في تقاليد بالية ومفاهيم ما أنز الله بها من سلطان، عاقته عن العمل الجاد والإنتاج المثمر، وشلت طاقته عن الخلق والإبداع، في ذلك العهد الاستعماري البغيض.

فحوحو من هذه الناحية مصلح اجتماعي في أدبه، مساير للحركة الإصلاحية في بلده، وناقد بصير بعيوب المجتمع وأمراضه، خدم شعبه وبلاده بقلمه في قصصه وتمثيلياته كما خدمه الواعظ المرشد بلسانه في خطبه وبيانه، والإمام في منبره، والمدرس في كرسيه.

وكثيرا ما كان يركز على المرأة باعتبارها الركيزة والدعامة لكل مجتمع، فهي المدرسة الأولى للأجيال كلها، في كل عصر ومصر.

فيتناول حبها وزواجها وتعليمها ومعاملة الناس لها وغير ذلك مما يراها مظلومة فيه أو مغبونة، ولم تأخذ حقها كاملا في الحياة كأخيها الرجل.

فهي عند حوحو مخلوق مغلوب على أمره، مسلوب الحرية والكرامة، لذلك تجب مناصرتها والدفاع عنها والأخذ بيدها. وكثيرا ما سمعته يقول عنها: هي في رأي الرجل عندنا "مجرد معمل للتفريخ"...أو"عامل بسيط لخدمة البيت" أوهي "لعبة الرجل ودميته" كما يعبر عنها بعض الأدباء والمفكرين.

وقد يترك المرأة ليعالج قضايا اجتماعية أخرى أهم وأعم، كالتفاوت الطبقي في بعض الأوساط من مجتمعنا، نرى ذلك في قصصه: "غني الحرب" و"الفقراء" مثلا. أو الأدب والأديب في المجتمع، كما في قصة "أدباء المظهر"، أو نزوات الشباب كما في "فتاة أحلامي"، أو النفاق الاجتماعي كما في "صديقي الشاعر"، وهو في ذلك كله يكتفي بالتصوير السريع واللمحة الدالة والإشارة اللطيفة، والنكتة البارعة ولايطيل، وفي رشاقة ولباقة.

لذلك كانت قصصه من النوع القصير، ورواياته "كما يسميها" من النوع الأقصر. وقد صنفها بعض الناقدين في صف القصص القصيرة وهي كذلك. وكلها هادفة كما رأينا فليست لمجرد التسلية والترفيه أو تمضية الوقت كما قد يظن البعض لأول وهلة.

تتسم روحه فيها بالخفة والمرح، وسلامة الصدر، ولطف المأخذ وبالعبارة السهلة الرشيقة في الأكثر، وأسلوبه فيها خال من التكلف والتعقيد اللفظي والعمق المعنوي، وهو إلى البسيط السطحي في الغالب

أقرب منه إلى التعمق والتأنق، فالبساطة والسهولة هما ميزته في كتاباته، وهو ما يهواه المتأدبون وصغار المثقفين لأن حوحو يتوجه في كتاباته إلى عامة الناس، أكثر مما يتجه بها إلى خاصتهم.

ولكي لا يبقى رأيي وحيدا في الموضوع، أرى أن أضع أمام القارئ المهتم نماذج من إنتاج حوحو المتنوع، سواء من تآليفه أومن مقالاته، لاشرك القارئ الكريم في إعطاء رأيه هوالآخر فيها، بعد الاطلاع عليها.

وقد اكتفيت فيما يخص المقالات ببعض ما نشر له في" البصائر" دون سواها، لتوفرها عندي وعدم توفر غيرها.

ثم أردف ذلك بآراء بعض أدبائنا من كتاب وباحثين في أنواع إنتاجه، وأختم هذه الفذلكة عن حوحو وإنتاجه بأنواع الاهتمام التي خضي بها دون سواه من مناضلي الكلمة في الجزائر، والله الموفق.

- **نماذج من إنتاجه:**

1) فاتحة قصة (فتاة أحلامي):

كان زملائي من الجامعة شديدي الولوع بمغازلة الحسان تلك المغازلات البريئة في الشوارع أيام الأحد، وفي دور الصور المتحركة، حتى إذا ما أقبل المساء بظلامه الدامس انطلقنا إلى الجامعة منهوكي القوى من تعب التجوال والركض في جميع أحياء المدينة، حيث نجلس على المائدة نتناول طعام العشاء في ضوضاء وجلبة، اذ يغدو كل منا يقص مغامراته ويطرى خططه ومناوراته لاقتناص الفتيات، بعد ما يضيف إليها ألوانا من الخيالات يقتبسها غالبا من أقرب فيلم سينمائي شاهده.

وكنت الوحيد من بين الطلبة الذي يصغي بإمعان إلى مغامرات زملائه، دون أن يستطيع مشاركتهم في أحاديثهم وعجبهم وزهوهم، وكنت أجد في ذلك ألما وحسرة، ولكن ماذا عساني أن أفعل... فان الحظ لم يسعفني ولو مرة واحدة بفتاة تفسح أمامي مجالا للكلام والفخر والزهو أمام زملائي، حتى إني كنت عندما أسأل عما لاقيته من مسرة في هذا الأحد أفر مسرعا أخفي خجلي وخمولي بعيدا عنهم، وأندب حظي العاثر...

وكانت أيام الآحاد "وهي الأيام الوحيدة التي يفسح فيها لطلبة القسم الداخلي بالخروج" تمر سراعا بدون جدوى، فكنت كل يوم ألاحق ذى من بعيد، وأطيل النظر إلى تلك حتى إذا ما رشقتني بنظرة عابرة فررت مضطربا مرتجفا... فهل كنت أخشى المرأة؟... هذا ما لازلت أجهله...

والحقيقة أني لم أكن شابا جريئا مثل زملائي، وإن كنت أبدو

ظريفا شديد التأنق، كأنني بضاعة بائرة، أقف في طريقهن منتظرا أن تتعثر في أحداهن فتلتقطني وتجعل مني "دون جوان العصر".

ولكن ويا للأسف طال انتظاري دون أن أجني أية فائدة، وخيل إلي أن جميع فتيات المدينة الجميلات منهن والدميمات أضربن عن مغازلتي وأبرمن اتفاقا بذلك...

كنت لا أفتر من التفكير في "فتاة أحلامي"... وكثيرا ما يمر الدرس بأكمله، وأنا غارق في بحور الأحلام، شارد الفكر، أبحث عنها في عالم الخيال الفسيح فلا أجدها ولا أهتدي إليها، وحصل لي مرارا - وأنا على المائدة - أن أستغرق في تفكير عميق، وأغدو أضع الخطط والمناورات لاقتناصها، حتى إذا ما استقر رأيي على الخطة الناجعة وارتحت إليها، وأزمعت تنفيذها يوم الأحد المقبل، وأقبلت على الطعام بسرور وشهية، لم أجد في الصحن شيئا، إذ اقتسمه زملائي والتهموه، وغدوا يطرون قدرتي على التعمق في التفكير، ويخلعون علي ألقاب الفيلسوف بسخاء، ويؤكدون أن الفلاسفة يتغذون من ثمرة أفكارهم... فأقوم خاوي البطن وأصبر على مضض إلى أن تحين وجبة العشاء.

ورغم هذه التضحيات العظيمة التي كنت أبذلها في سبيل خططي، لم أقو ولو مرة واحدة على تنفيذ إحداها فقد كانت تخونني الشجاعة وتتقصني الجرأة دائما أبدا.

2) من بداية (رحلته إلى الاتحاد السوفييتي):

شغفت كثيرا ومنذ عهد بعيد الاطلاع على ما يجري في ذلك العالم الجديد: "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية"، فطالعت كثيرا مما أخرجته المطابع العربية والفرنسية على السواء، من كتب وصحف بقلم أعداء تلك البلاد وأصدقائها حتى توهمت نفسي في صفوف المطلعين على النظام الاشتراكي المطبق هناك، وحتى خلت نفسي حجة في فهم تلك الديار وما يجري فيها من ضروب الحياة والعمل والسياسة، ولكن حينما حللت هناك وحاولت أطبق معلوماتي على الواقع، وجدت في مخيلتي صورة مشوهة متضاربة الآراء والأفكار، متأثرة بإعجاب المعجبين وانتقاد الناقمين، وجدت عالما جديدا لا يمت إلى العالم الغربي المادي بصلة، وجدت عالما جديدا في تفكيره، جديدا في وضعه، جديدا في نظمه، جديدا في سير حياته وأعماله، حتى أن مدلول بعض الكلمات في تلك الديار غير مدلولها عندنا، فهم يعيشون في نظامهم الاشتراكي العجيب، ونحن متأثرون بنظام الرأسمالية وأخلاقها وحياتها، فلا غرابة إذن إذا ما وجدنا كل صغيرة من حياتهم غريبة تستدعي البحث والاهتمام، فكثيرا ما كنا نسأل عن مسألة تبدو لنا هامة وإذا بها مسألة تافهة عندهم لا تستحق الاهتمام والبحث، وهكذا قضينا أربعة وعشرين يوما في تلك الربوع عامرة بالمشاهدات والزيارات والبحث والتنقيب.

ويكفي القارئ أن يعلم أننا كنا نبتدئ العمل من التاسعة صباحا إلى الثانية من صباح الغد، تتخللها فترات قصيرة للأكل، وبهذا أمكننا أن نطلع على عدد وافر من المنظمات والمؤسسات والمعامل والمزارع والمدن والقرى والمعابد وغير ذلك.

وكانت المسافة التي قطعناها في الذهاب والإياب بلغت سبعة وعشرين ألف كيلومتر، وبلغت الساعات التي قضيناها فيها على متن الطائرة وحدها أثنين وسبعين ساعة عدا القطر والبواخر والسيارات.

- وفد افريقيا الشمالية: هكذا كانت تسمى جماعتنا المكونة من عشر أشخاص من أقطار مختلفة، وأديان مختلفة، ومبادئ سياسية واجتماعية عديدة، فهذا طبيب من تونس، وهذا كاتب نقابة من وهران، وهذا فلاح من المغرب، وهذا صفحي، وهذا إسرائيلي، وهذا مسيحي، هكذا اجتمع هذا الخليط العجيب، فكون وفد إفريقيا الشمالية الذي لا تجمعه إلا رابطة حب الاطلاع على تلك الدنيا العجيبة التي تقع في ذلك العالم النائي المنعزل عنا.

كان ذلك يوم 19 أوت 1950 على الساعة الثامنة، حيث تحركت بنا الطائرة من مطار أورلي بباريس، وبعد رحلة ممتعة مريحة في طائرة "إيرفرانس" وصلنا مدينة "براغ" عاصمة تشيكوسلوفاكيا على الساعة الحادية عشرة والنصف، وبعد إجراءات الجمرك والجوازات توجهنا إلى فندق "سبلنديد" حيث تناولنا الطعام وأخذنا قسطا من الراحة ثم توجهنا إلى المدينة، وكانت في شبه عيد حافلة بوفود المؤتمر العالمي للطلبة ومؤتمر السلام وكان الشعب محتفيا بهذه الوفود، فقامت منظمات الشباب المختلفة بإعداد حفلات متنوعة البرامج والألعاب من موسيقى وأغاني ورقص شعبي وتمثيل هزلي، وكلها في الهواء الطلق، في ملاعب رياضية واسعة، وحدائق فسيحة حولت مسارح، فهؤلاء جماعة من البولونيين بملابسهم القومية المزركشة يرقصون رقصة "الكاركوفا"

العجيبة المشهورة، وهؤلاء كشافة براغ يقدمون رواية هزلية انتقادية.

وقد لفت نظري رواية يسخرون فيها من محطة لندن، كيف أن المتكلمين من تلك المحطة باسم البروفسور فلان والعالم فلتان، هم عبارة عن نكرات يجمعون من هنا وهناك، تعد لهم تلك الأبحاث فيقرأونها أمام المذياع مقابل دريهمات معدودة.

3) من حديثه (مع حمار الحكيم):

انتهيت من مطالعة لذيذة لكتاب "حماري قال لي" لتوفيق الحكيم، واستلقيت في مقعد مريح بالنسبة إلي أنا الذي قضيت ثلاثين حجة من حياتي بين مقاعد الدراسة ومقاعد العمل، وكلها لا تمت إلى الراحة واللين بصلة قريبة ولا بعيدة. ثم استغرقت في تفكير عميق محاولا هضم ما قرأت وماهي إلا دقائق حتى أغفت عيناي، وألقى علي الكرى رداء أسود خفيفا، ورأيت فيما يرى النائم اليقظ حمارا صغيرا لطيفا تبدو عليه علامات الذكاء والفطنة، يطل علي برأسه من وراء مقعدي، فعرفته على الفور دون إشكال أو عناء، فقد كان حمار توفيق الحكيم برأسه وأذنيه.

فقلت له: أنت حمار الحكيم فقد عرفتك، فافترت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة عريضة.

وقال: عرفتني هكذا بسهولة دون إشكال؟

فقلت: نعم، فإن معالمك لم تخف علي.

قال: فأنا مشهور إذن في بلادكم؟

قلت: دون شك ومن يجهل حمارا فيلسوفا مثل حضرتك؟ حرك الحمار الفيلسوف أذنيه الطويلتين

ثم قال: إنك لم تخطئ، فقد لاحظت كثيرا من الحمير يتمتعون بشهرة كبيرة في هذه البلاد.

قلت: وما سبب هذه الزيارة يا ترى؟

قال: استدعيت لأغني في محطة الإذاعة الجزائرية.

قلت: تغني في الإذاعة؟ يا للعجب!.

قال: وما وجه العجب؟ فان صوتي جميل، هل تريد أن أسمعك شيئا مجانا دون مقابل؟

قلت: لا. لا عدمتك، ولكن أليس صوتك هو الذي ذكره الله في القرآن؟.

فكشر الحمار عن أسنانه ضاحكا. ثم قال:

- سوف لا تخسر شيئا، فإن لم يعجبك صوتي فما عليك إلا أن تدير لولب الجهاز بعنف كما أعتدت تفعل.

وأردت أن أغير مجرى الحديث خوفا من أن يذهب به الحماس إلى رفع عقيرته بالغناء.

فقلت له: كيف فارقت صاحبك؟.

قال: من تعني؟ توفيق الحكيم؟ فقد ضقت ذرعا بهذا الرجل، لأني كلما وضعت برنامجا إصلاحيا إلا وقام بإفساده علي...

... (ثم ينتقل بهما الحديث إلى مشاكل الحياة فيجري الحوار بينهما هكذا بشيء من الاختصار)...

قال الحمار: ما عليك إلا أن تشرح لي أية مشكلة من مشاكلكم، وسأفيدك برأي فيها.

قلت: إن مشاكلنا كثيرة، وحياتنا معقدة، ولكن لا بأس أي موضوع تريد أن نبحث؟...

قال: نتكلم في السياسة.

قلت: دعني من السياسة... إنها لم تتضج في بلادنا، ولازالت تعتمد على المصالح الشخصية، إنها لم تتضج في بلادنا، ولا زالت تعتمد على المصالح الشخصية، والحزازات الفردية أكثر من اعتمادها على المبادئ والأفكار، والمصلحة العامة، وأنا لا أريد أن ألطخ نفسي بأوحالها. حك الحمار قذاله برجله

وقال: هل تريد أن نطرق موضوع المرأة؟

قلت: كن مرتاحا من هذه الناحية فلا وجود للمرأة في بلادنا.

قال: عجبا تعيشون بدون نساء وكيف تتناسلون؟

قلت: لدينا آلات للنسل نحتفظ بها بيوتنا.

قال: هذه مشكلة عويصة دعنا من هذه، فلنبحث في الفقه فأن لي فيه آراء جديدة لا تخلو من فائدة.

قلت: أرى أن تحتفظ بها لتحدث بها فقهاءنا علهم يستفيدون منك شيئا جديدا.

قال: والتعليم؟

قلت: هناك التعليم الرسمي، وهو تعليم مبني على قاعدة: تعلم لتجهل...

قال: عجبا يتعلم ماذا؟ ويجهل ماذا؟ فإني لا أكاد أفهم شيئا.

قلت متضجرا: وأني لك أن تفهم فلسفتنا؟

وأردفت قائلا: وأما التعليم الحر فإن له لجنة عليا، تستطيع أن تتصل بها لتقدم لها آراءك ومقترحاتك.

قال: وهل يروقك حديث الأدب والفنون؟

قلت: لا أدب ولا فنون، ولا صحافة ولا كتب، ولاهم يحزنون،

فضحك بملء فيه وقال:

إنك لرجل متشائم، ولكن لا بد من طرق أي موضوع، فاتكم في الاقتصاد..

قلت: أما رجال المال والتجارة فإنهم لا يضيعون أوقاتهم المادية الثمينة في قراءة مهاتراتنا، وأما القراء فإنهم لا يملكون ما يشترون به ما يريدون مطالعته، وهم في غنى عن خبرتك الاقتصادية.

قال: لقد أعياني البحث معك، اقترح أنت موضوعا نتباحث فيه مليا.
قلت الفقر أو الجهل.

قال: مشمئزا إن فلسفة الحمير لا تتنازل إلى هذه الأمور الحقيرة ثم ألقى نظرة على ساعته في رجله وصاح:

لقد حان وقتي ولم نصل إلى نتيجة، فأستودعك الله وإلى اللقاء.

واستيقظت من غفوتي، وبحركة آلية فتحت جهاز الراديو، وإذا بصوت مزعج ينطلق منه...

قلت: من؟ حمار الحكيم هل هو الذي يغني؟...

(من كتاب حمار الحكيم لحوحو

(صفحات 12-17)

4) كلمته في المؤتمر العالمي للسلام بباريس:

حضرات السادة، حضرات السيدات. لي الشرف العظيم أن أتقدم بين أيديكم باسم الجزائر، وباسم الشعب الجزائري أجمع: مسلمين وأوربيين، رجالا ونساء كبارا وصغارا، لا قدم تحيته الخالصة إلى هذا المؤتمر الأممي العظيم، الذي عقد لتوطيد السلم، هذا المؤتمر الذي عقد ليجعل - بالاتحاد- من ضعف الفرد قوة عظيمة قوة لا تغلب، يحطم بها هذا الوحش الضاري، هذا الوحش الفتاك الذي يسمونه الحرب.

ليس لهذا المؤتمر من قوة سوى قوة اتحاد الشعوب، وليس لهذا المؤتمر من قوة سوى إرادة الشعوب، واتحاد الشعوب وإرادتها قوة لا تغلب، وعروة متينة لا انفصام لها، تقف الجزائر في هذا المؤتمر لتمد يدها إلى جميع الشعوب المسالمة إلى جميع الأمم التي تتعشق الحرية وتهيم بها وبالأمن، مهما اختلفت ألوانها وعناصرها وتتقدم بخطوات ثابتة لتقف بجانبهم وتدافع في صفوفهم بكل ما أوتيت من قوة عن الحرية أولا وعن السلام العام، أقول: الحرية وأكررها، لأن الحرية والسلام شيء واحد لا يقبل القسمة ولايحتمل التجزئة.

إن الجزائر التي تعاني من ضغط الاستعمار واضطهاده، الجزائر التي تعاني ما تعاني من حرب الاستعمار بها: محاربة الاسلام، محاربة اللغة العربية، إغلاق المدارس العربية العديدة، وضربها بالقوانين الجائرة، لاشيء سوى تضخيم هذا الجيش من الأطفال المتشردين وحرمانهم من نور العلم والثقافة، إن الجزائر التي تتجرع كل يوم ويلات الحرب بشتى الوسائل المتطلعة إلى السلام، لا تريد أن ترى بعد اليوم دماء أبنائها تسيل منهمرة،

لاتريد أن ترى بعد الآن دموع الثكالى دموع الأيامى، دموع اليتامى، تجري حارة في سبيل تضخيم ثروة المثرين، وتوسيع أراضي المستعمرين، في سبيل الشهوات الجائعة، شهوات الرأسمالية التي لا يشبعها شيء، فهي كالجحيم تقول دائما: هل من مزيد؟ هل هل من مزيد؟

ولهذا فإن الجزائر لا تحتج على الحلف الأطلسي فحسب وإنما ترفضه رفضا باتا. إن الجزائر تريد الحرية والسلام لجميع الشعوب، فلا غرابة في أن تريد الحرية والسلام لنفسها، فهي تمدُّ يدها لكل من يريد لها "كما يريد لنفسه" أن تعيش حرة آمنة وتموت حرة آمنة.

جريدة (البصائر) عدد 79

السلسلة (2)سنة 1949م

● من مقالاته في البصائر:

5. خواطر حائر (الفقراء):

أمعنت النظر في هذه الحياة الملأى بالرذائل والشرور، فتحيرت وتألمت فجاشت نفسي بخاطرة قدمتها إلى القراء في العدد الماضي من " البصائر" وكانت بعنوان "السعادة" ورأيت اليوم أن أنفس عن نفسي بعض همومها وأن أخفف عنها آلامها، فهرعت إلى المطالعة سلوتي الوحيدة في هذه الحياة.

وامتدت يدي- دون أن أشعر- إلى كتاب، وإذا به "سير الدهور لهيجو" أخذت أتصفح الكتاب دون ترتيب أو نظام إلى أن طالعني هذا العنوان "الفقراء" دعني أعش إذن مع الفقراء برهة من الزمن، فإني لا شك واجد بينهم شيئا من الراحة والطمأنينة.

قرأت "الفقراء" لهيجو وكانت نفسه تطالعني من بين السطور تقطر حيرة وألما، وما هي إلا فترة حتى اختلطت حيرتي بحيرته، وآلامه بآلامي فأسرعت إلى يراعي أكتب عن الفقراء بالعربية ما كتبه عنهم "هيجو" بالفرنسية، وليس ما أكتبه اليوم بالترجمة، ولم يكن كذلك بالابتكار، وإنما هو مزيج نفسين بائستين، تألمت إحداهما منذ قرون وتحيرت الأخرى اليوم، أملت الأولى وكتبت الثانية، فجاءت هذه الخاطرة التي أقدمها للأغنياء، وأنا واثق من أنهم لن يتخذوا منها عظة وعبرة وأني لنفوسهم أن تتعظ أو تعتبر وقد أفقدتها الشهوات السمع والبصر.

كانت أسرة هذا الحوات الفقير تتكون من سبعة أشخاص:

الأم والأب وخمسة أطفال صغار لا حول لهم ولا قوة، وتقطن هذه

الأسرة البائسة كوخا أقيم على شاطئ المحيط يقيهم شرور العواصف الهوجاء، ويحميهم لذعات صرها وقرها.

كان ظلام الليل الدامس مخيما على هذا الكوخ الفقير المغلق الأبواب، ورغم حلوكة الليل يستطيع الشخص أن يتبين محتويات هذا المسكن التي هي عبارة عن سرير خشبي كبير أبلاه القدم، مسدولة عليه ستائر طويلة بادية التمزيق، تمدد فوقه خمسة أطفال صغار، غارقين في نوم عميق، وقد التف بعضهم ببعض، وفي طرف الكوخ مدفأ كبير تستعر فيه بعض الأحطاب الملتهبة يعلو نورها إلى السقف وينعكس على وجوه النائمين الصغار، فيختلط بنور البراءة والطهر الذي انبثق من قلوبهم الصغيرة الفاضلة، وقرب السرير امرأة في ثياب رثة، مصفرة الوجه نحيلة الجسم، يلوح عليها أثر البؤس والشقاء، وتبدو عليها بوضوح علامات الضنك والعناء الشديد، كانت جاثية على ركبتيها، غارقة في بحر من التفكير، ترفع طرفها كل آن إلى ربها، تدعوه ليعينها، وترجوه تخفيف بؤسها وشقائها.

لم تكن هذه المرأة سوى والدة هؤلاء الصغار، فهي وحيدة في المنزل مع صغارها، ترتجف كلما طرق سمعها رغاء المحيط الذي كان غاضبا مزبدا يرسل أصوات أمواجه، فتختلط بأصوات الرياح، فتغدو شيئا مزعجا يملأ الفضاء كأنه أصوات الشياطين.

ورب هذه الأسرة الفقيرة يخوض عباب المحيط الهائج، ويكافح عواصفه الهوجاء التي ترسل عليه وابلا من المطر تارة، وتنفخ في وجهه عاصفا من الريح تارة أخرى. وكان حتما على الوالد المسكين أن يخوض بمركبه الصغير كل مساء هذا اليمَّ الخضم الفتاك مكافحا مناضلا

مخاطرا بحياته في سبيل التحصيل على القوت الضروري لصغاره الجياع، بينما الأغنياء المترفون يبددون الذهب دون حساب، حيث يقيمون منه صروحا شامخة تمرح فيها الرذيلة وتلعب. والفضيلة تئن في هذا الكوخ الفقير تسكب عبراتها على أبنائه البررة.

تقدم الليل واشتد الظلام وضاعف المحيط الهائج زئيره، والرجل لم يعد من رحلته، وزوجته في حيرة وقلق تدعو له بالنجاة، حتى إذا اشتد خوفها عليه وزاد قلقها، خرجت إلى الشاطئ تتطلع وتنتظر: مرت في طريقها بكوخ أرملة مريضة فقيرة تعيش بالقرب منهم مع طفليها الصغيرين، ورأت من واجبها أن تلقي نظرة على هذه الجارة التي تربطها بها أقوى الروابط وأمتنها وهي رابطة البؤس، فتقدمت نحو الباب وطرقته فلم يجبها أحد، ففتحته ودخلت وهي على أطراف أصابعها خشية إيقاظ النائمين، وما كادت تتقدم بضع خطوات حتى رأت منظرا رهيبا وقفت أمامه مشدوهة، فقد وجدت هذه الأرملة ممدودة وقد أسلمت أنفاسها الأخيرة مبتسمة للقضاء والقدر راضية بمشيئة الله وإرادته، وأطفالها الصغار نيام حولها لا يفقهون شيئا مما حل بهم.

وانفجرت دموع هذه المرأة الفقيرة رقة وحنانا، وفاض فؤادها بالعطف والرحمة، ناهيك بعطف الفقير على الفقير ورحمة البائس بالبائس، وشفقة المسكين على المسكين، لم تستطع هذه البائسة حبس عبراتها أمام هذا المنظر المؤلم فغدت تذرفها حارة سخينة.

ولم تجد بدًّا من حمل الطفلين والذهاب بهما إلى كوخها، فأرقدت الصغيرين في سريرها وأرخت عليهما ستائره الممزقة ومكثت تنتظر عودة

زوجها في حيرة واضطراب من أمرها، ماذا تقول لزوجها الذي يقضي طول نهاره وجزءا من ليله في كد متواصل وتعب شديد، وكفاح دائم في سبيل التحصيل على ما يسد الرمق، وقد كانت الأسرة تضم سبعة فأوصلتها بفعلها هذا إلى تسعة، وما هذه الزيادة إلا زيادة في شقاء زوجها، وأخذت المرأة تضطرب خائفة من لوم زوجها وتعنيفه، ولكن كنت واثقة من طيبة قلبه ورقة عاطفته.

وما كاد الليل ينتصف حتى دخل رب الأسرة إلى الكوخ متعبا من العراك العنيف مع العواصف الهائجة التي كادت ترسله ومركبه الصغير إلى قاع البحر لولا لطف الله، لم يتحصل هذا البائس المسكين على سمكة واحدة رغم كل جهوده، فعاد بخفي حنين، ولكنه سر سرورا عظيما حينما شاهد زوجته وأطفاله آمنين في منزلهم.

ماذا أقول له يا إلهي عن فعلتي؟ سألت المرأة نفسها وأخذت ترتجف كالمذنب حينما يتذكر ذنوبه الخطيرة، ثم قالت بصوت مضطرب: قضت جارتنا نحبها.. لا بد أنها توفيت في المساء بعدما ذهبت أنت إلى الصيد...

ثم أرسلت زفرة حارة، واسترسلت قائلة: تركت طفلين صغيرين... ولدا وبنتا.. الولد لم يمش بعد، والبنت تتكلم قليلا... مسكينة تلك المرأة، كانت في غاية الفقر والاحتياج!

امتقع لون الرجل، ورمى بقبعته المبللة بمياه البحر وصاح متضرعا إلى الله:

- إلهي... رحماك يارب.. لنا خمسة أطفال وسيصبحون سبعة... نحن في هذا الفصل القارس الشحيح نكتفي بأكلة واحدة لعدة أيام، فماذا

يكون مصيرنا؟ وهؤلاء صغار لا يصبرون على أكل، ولا يستطيعون عملا... ثم التفت إلى زوجته وقال بحنان:

- قومي أيتها المرأة... إذهبي حالا وأت بهما.

سنكتفي الليلة بشرية ماء ونطعمهما، وسأضاعف الجهود...

أخذه العجب حينما رأى زوجته ثابتة في مكانها لا تتحرك، فبادرها بقوله:

- مالك لا تتحركين؟ ألم يعجبك هذا الكلام؟

وأرسلت الزوجة زفرة حارة من أعماق صدرها، ورفعت ستائر السرير الممزقة وقالت:

انظر... هاهما...

(البصائر عدد (3)

السلسلة (2) سنة 1947م

6. الأدب والأديب:

الأدب كالمخدر الشديد المفعول والضرر، من تلك المخدرات الفتاكة كالمرفين، والكوكايين سواء بسواء. والأديب كمدمن هذه المخدرات المغلوب على أمره. يجد الأديب في الاشتغال بالأدب لذة، ويجد في تصيد المعاني الحسان وابتكارها لذة، ويجد كذلك في إذاعتها بين الناس وإيثار إعجابهم أو سخطهم متعة، ويغدو الأديب في هذه الملاذ كلها وهو يجهل نتائجها العقيمة ومضارها الفتاكة، يسعد ويتلذذ على حساب نفسه وصحته، ينحت متعته من عقله وجسمه، يجد في ألوان العذاب لذة، ويجد في ضروب الشقاء متعة، بل يجد في هذه الآلام التي يقاسيها وعذابها، فيتمتع بهذا الاكتشاف ويسعد بهذه اللقية التي وصل إليها عن طريق الآلام والشقاء، لا لشيء إلا لأنها تمده بما يسميه الخلق الفني البديع.

تتعذب نفس الأديب، وتتطلب شيئا من الترفيه، فلا يرحمها لأن الراحة تتطلب الكذب على النفس والتمويه عليها، وهو لا يريد أن يغش نفسه ويكذب عليها، وإنما يصدقها ويصدمها بحقائق الحياة مهما كانت مؤلمة مريرة.

ويغمر كذلك جسمه في العناء والتعب، لأن راحة الجسم معناها ركود الذهن وقتل حاسة التفكير، وهو حريص على تغذية هذه الحاسة كل الحرص. وتغدو نفسه الإنسانية تتخبط في ضروب الحرمان وتتعذب في آلام الحقائق، ويغدو جسمه يضمحل في آلام الإجهاد وآلام العناء، إلى أن يذوب كما تذوب قطعة الملح التي تغمرها المياه.

الأديب إنسان ضعيف يريد أن يعيش بعقل قوي جبار. أنه شخص غريب يستحق العطف والرحمة، ولكن لا يجد في حياته سوى الجحود والحرمان والآلام والنكران، إلى أن يدركه ربه برحمة الموت فتحمله إلى عالم الأبدية، حيث الراحة والطمأنينة والخلود.

جريدة البصائر عدد(6)
السلسلة (2)سنة 1947م

7. بيني وبين الناس:

سأتناول في هذه الكلمات المستعجلة تصفية حسابي مع الناس، فأعطي لنفسي ما لها وللناس مالهم، وكل ذلك بمودة وإنصاف، وكما قمت قبل سنين بهذه التصفية مع إخواني الحجازيين على صفحات "صوت الحجاز" أقوم بها اليوم مع إخواني الجزائريين على صفحات "البصائر".

وهذه الكلمات المختصرة التي أقدمها للقراء الكرام لا تخرج عن دائرة المداعبة، لكنها تنطوي على نقاش لطيف وحوار ظريف في بعض الحقائق، وهي مع كل ذلك لا تخلو من فائدة ولا تخلو كذلك من فكاهة فيها صراحة، ولكنها صراحة الصديق لصديقه الحميم، وفيها عتاب، ولكنه عتاب الأخ لأخيه الشقيق، وفيها نقد ولكنه نقد بريء نزيه لحمته كشف الغطاء عن الحقيقة وسداه الإخلاص والإنصاف.

وهي مع هذا وذلك تصفية حساب لا بد منه، وحل لعقد علمية وأدبية، وإيضاح لمشاكل اجتماعية وخلقية وسياسية، تدور حول ما أستشكلته أثناء كتاباتي وبحوثي، وما استغربته أثناء مطالعاتي ومناقشاتي سواء مع نفسي أو مع غيري.

سأتعاون مع الجميع على كشف الغطاء عن الغوامض، وتقييد الشوارد بهذه الطريقة الودية الفكاهية التي ملؤها الإخلاص. وطريقتنا هذه تقرب ولا تبعد، تبشر ولا تنفر، أكتبها وأنا أبتسم، ويقرؤها القارئ وهو يبتسم، ويرد عنها من كان له ذلك وهو يبتسم، فتتضح بذلك الحقائق وهي تبتسم.

وسأتجنب الكتَّاب الحداد، والناس الشداد، وأبادر تصفيتي مع الناضجين الهادئين، حتى يتعود ويألف النافرون الشاذون، وحينذاك نصفي حسابنا مع الجميع على السواء، واعتمادنا في كل ذلك على الله وحده، نرجوه المعونة والهداية إلى سبيل الرشاد.

جريدة (البصائر) عدد 27
السلسلة (2)سنة 1854

الشيخ النعيمي في الميزان: (هل هو أديب أفسده العلم؟ أم هو عالم أفسده الأدب؟).

تسمع بالشيخ نعيم النعيمي أيها القارئ من دون شك؟ ولكنك لاتعرفه ولا يمكنك أن تعرفه إلا إذا عرفته لك، لأن معرفته تكلفك جهودا كبيرة ودراسات دقيقة، ولا تحاول أن تفهم من هذا أن شخصية الرجل شائكة يحيط بها الغموض بل العكس أصح. إن شخصيته صريحة إلى حد بعيد ولكنها متعددة الجوانب، وقد تقول إن تعدد الجوانب في الشخصية الصريحة لا يتطلب العناء في فهمها ودراستها، وأجيبك إن ذلك حق لو كانت هذه الجوانب مرتبة، ولكنها في هذه الشخصية وضعت في لف ونشر مشوش وذات اتجاهات متعاكسة تتأرجح بين مد وجزر.

فهو شاب في هندام الشيوخ، عالم في عقل أديب، فقيه في خيال شاعر، قديم حديث ذو ذاكرة ولكنه فظيع النسيان سريع الغضب سريع الرضا، أما ذاته أو الوعاء الذي جمعت فيه هذه الجوانب المتعددة المتعاكسة، فأني أصفه لك في كلمتين راجيا أن تعفيني من عناء وزنه وأخذ مقياس طوله وعرضه، لما في ذلك من مشقة، وحسبك أن تعلم أنه كروي الشكل وكفى، صورة صغيرة لبشار بن برد، غير أنه حاد النظر، لم تؤثر كثرة المطالعة والدراسة المغرم بهما شيئا في بصره، أما من الناحية الفكرية فقد تنازع فيه عاملان قويان: عامل العلم الديني، وعامل الأدب الطليق.

فأي شيء هو؟ هل هو عالم ديني له وقار العلماء وسعة اطلاعهم واتزان أحكامهم؟ أم هو أديب له خيال الأدباء وشعورهم وتحررهم، يسبح في عالمهم العلوي، ويأوى إلى أبراجهم العاجية. فهل يعيش مع الشيخ خليل والقاضي عياض؟ "أم مع أصحاب المعلقات في جاهليتهم؟ أو مع أدباء العصور العباسية والأندلسية" وإذا ما تجاهلنا نصفه العلمي أو أزحنا عنه العامل العلمي جانبا نجده أديبا حلو الفكاهة يروي لك النادرة تلو النادرة، فلا تكاد تفرق مابين مخلوقاته منها ومحفوظاته. وهو مع ذلك كله قوي الذاكرة كثير الحفظ ينظم الشعر ولكن أراجيزه الساخرة تطغى بروعتها على الجوانب الأخرى من أدبه.

نجد الشيخ النعيمي في بعض الأحيان غارقا في الأدب ينتقل من نكتة إلى أخرى، ومن بحث إلى بحث، ومن قصيدة إلى قصيدة، يروى ويعلق، يقارن وينقد، ولا يكاد ينتبه إلى رجل الشارع الواقف أمامه يستجديه الفتوى... وقد ينتبه إليه الشيخ النعيمي بعد فترة قد تطول وقد تقصر، فيصلح حينئذ من هندامه ويكتسي بوقار رجال الدين، ويعود إلى الموطأ وتفسير المنار. حيث يغيب في حصونهما الحصينة لحظة يخرج بعدها مفتيا، يحفظ ويدرك الأصل والفرع ويفقه الحكم والتعليل، وهكذا ينغمس في نصفه الديني، ولا يكاد ينتبه حتى يسمع أحدهم يتكلم عن أديب أو يترنم بشعر، فيعود إلى الأدب، أو يسمع مناقشة في الأصول فيعود إلى الدين، وإذا ما سأله أحد إلى أي طائفة ينتمي؟ للعلماء أم للأدباء؟

احتار في الجواب واستمر في حيرته إلى أن يسعفه أحد زملائه بالجواب الشافي، فيعرفه تعريفا جامعا مانعا، ولكن هذا التعريف أيضا لا يخلو

من طريق التنازع، لأن الشيخ عند العلماء عالم ديني أفسده الأدب، وعند الأدباء أديب ممتاز أفسده العلم، ولا يسع صاحبنا الشيخ إلا أن يبتسم للنكتة وينطلق خارجا قاصدا بيته... فيحتل عربة (الترام) المعاكسة لخط اتجاهه، وقد تربع جالسا في مقعد منتظرا خلو مقعد ليحتله لأنه نسي أنه جالس يسير إلى اتجاه معاكس لاتجاه منزله، وإذا تذكر أنه نسي محفظة نقوده عند بائع نسي اسمه وحرفته ومكانه، يهبط مسرعا تاركا وراءه محفظة كتبه وأوراقه وقد نسيها كما نسي ضيفا ضرب له موعدا في مكان نسيه.

يتبين لك من هذا أن الرجل قوي النسيان إلى حد فظيع، ولا يغرك ذلك فهو نساء ولكن في ميادين الحياة، أما في ميداني العلم والأدب فإن ذاكرته قوية يقظة لا يشق لها غبار، ففي استطاعته أن يروي لك نادرة طالعها في كتاب يذكر لك اسمه ومؤلفه وتاريخ طبعه، ويذكر لك عدد السطر من كتاب لاحظ فيه خطأ مطبعيا لبيت من الشعر أو نصا من حكم.

وبعد فهل زال عجبك من قولي: أنه كثير النسيان قوي الذاكرة، عالم متزمت أديب طليق، مستقيم ملتوي؟ هل أدركت: كيف أستولى عليه هذا اللف والنشر المشوش؟ فإذا ما أدركت ذلك فقد عرفت الشيخ النعيمي وعرفت طيبة قلبه وسعة خاطره ودماثة أخلاقه وتبين لك أنه حضري في ثوب البداوة وبدوي في عقل حضاري، وشيخ شاب وشاب شيخ.

البصائر عدد 262

السلسلة (2).

9. عبد الرحمان شيبان في الميزان:

"بذور ديمقراطية صالحة في تربية أرستقراطية خصبة".

شخصية ملأى بالمفاجآت والعقد النفسية ويا ليتني كنت عالما نفسانيا إذن لقدمت للقراء أروع تحليل بسيكولوجي، وعليه فستبقى هذه الشخصية غارقة في عقدها النفسية إلى أن يرزقها الله بمن يحللها تحليلا ضافيا، أما أنا فسأكتفي منها بما ظهر تاركا ما بطن، وحسبي هذه الجوانب الظاهرة التي لا تخلو بدورها من التعاريج والأحراش.

الشيخ عبد الرحمن شيبان ديمقراطي الأفكار، أرستقراطي الشخصية، ومنشأ هذا التناقض العجيب ووجود هذه الديمقراطية الطليقة في هذه الشخصية الارستقراطية المحافظة، هو أن صاحبنا نشأ مدللا في أسرة أرستقراطية مثالية في التحفظ والتقاليد، ثم أنتقل إلى بيئة الطلبة الديمقراطية وحياتهم الشعبية الحرة، فتغذى بهذه المبادئ فآمن بها دون أن يقطع صلته بماضيه وتقاليد أسرته...

وإني لا أشك في أن صاحبنا يتساءل... حينما يتجرد من شخصيته ويجعلها أمامه في ميزان المجتمع: هل هذه الشخصية ديمقراطية دخيلة أم أرستقراطية أصيلة؟

ولعل من هنا نشأ عنده هذا التردد الذي يعرفه فيه أصدقاؤه، ويقدره هو في نفسه، فهو كثير التردد في كل شيء، حتى في أبسط الأمور لأنه ينظر لكل شيء بمنظارين: أحدهما حر طليق، والثاني محافظ مقلد، فإذا وقف أمام أحد الباعة يقلقه بنقضه وإبرامه، وإذا اشترك مع أحد

زملائه في عمل يثير أعصابه بنفيه وإثباته، وإقدامه وإحجامه.

لقد اعتقد ذات يوم أنه رجل دين"فتعمم" و"تَجَبَّبَ" و"تبرنس"، وجلس للإمامة والإفتاء، وتقدم له شخص يطلب الفتوى في مسألة دينية، فما كان من الشيخ إلا أن تنحنح وتبحبح وراجع قواعد أصوله وفروعه، وقال: قال الشيخ معروف الرصافي رحمه الله ورضي عنه، واسترسل يقرأ قصيدا للرصافي، فهو إذن رجل الدين، نعم ولكنه يروي هذا الدين عن شيخه المرحوم "بوشربية"..

واختلط على الشيخ دينه بأدبه، فقرر أن يطلق العمامة والجبة والإفتاء في الدين، "فتطربش" و"تسرول" ونصب نفسه مفتيا في الأدب وفي الأدب فقط.

وصاحبنا لا يحلو له أن يأخذ إلا كل طريف، وإلا يعجب الا بكل ظريف مهما كان مصدره، ومهما كانت بيئته ومذهبه، ومن هنا تبدو لك أناقته في الأدب، في مطالعته في أسلوبه في مناقشته، كما تبدو أناقته في ملبسه وهندامه، ولولا كسله في الإنتاج، أوشحه بهذا الإنتاج لقدم للقراء روائع.

ولكن ما بالي نسيت أن أخطط لك صورته؟ فاعلم إذن وباختصار: أن شيخنا شيبان شاب في العقد الرابع فارع الطول، قوي البنية، أنيق الملبس، حتى أنه يفرط في بعض الأحيان في هذه الأناقة، فتجده ينتقي كل قطعة من لباسه بعناية تامة، ولا يشتري قميصا أو ربطة عنق، حتى يعقد مؤتمرا ويجمع آراء من يثق بذوقهم ومن لا يثق على السواء، ثم يتوجه إلى البائع

الأول ويـشتري حاجتـه مـن البـائع العـشرين. أمـا حلاَّقـه فمـشكلة مـن المشاكل، فهو إلى الآن لم يستقر رأيه على حلاق يرتضيه أو نوع حلاقة ترضيه. ولكنه مع ذلك كله شاب لطيف المعشر، طريف المظهر، كثير الثقة بأصدقائه ولكنه كثير الحذر، وقد يكون هذا الحذر في غير محله، حسن الظن بعباد الله الصالحين وغير الصالحين، يحب الشخصية الجبارة ويعجب بها، ولوكانت شخصية راسبوتين!

البصائر عدد 265

من السلسلة 2

10. الشيخ الياجوري في الميزان:

"إنه المعيدي الصغير لكن، خير لك أن تسمع به وتراه".

الشيخ عبد القادر الياجوري جندي من قدماء المحاربين في هذه الحركة الإصلاحية المباركة، خاض المعارك في كل ميدان، واستعمل في كفاحه كل سلاح، عصبي المزاج تحتل نفسه ثورة عنيفة في جرأة عنيدة، ولهذا لا تعجب إذا ما قلت إن الرجل اختصاصي في معرفة السجون والمنافي وألوان العذاب، فقد نزل ضيفا غير مكرم على أغلب السجون الاستعمارية، وذاق من ويلاتها أصنافا أكثر من أصناف الطعام التي ذاقها في حياته، ولكن كل ذلك لم يفل من حدته ويحد من عزمه شيئا.

وإذا بدا لك ساكنا ناعما، فاعلم أن وراء السكينة نارا تتأجج، وأن تحت النعومة أشواكا حادة.

الشيخ الياجوري كهل في العقد الخامس من عمره المديد الملآن بالحوادث، قمئ يبلغ طوله نصف طول شيبان، ويبلغ وزنه نصف وزن الشيخ حماني، وتبلغ صباحة وجهه نصف جمال الشيخ بوكوشة، وما عليك إلا أن تجمع هذه الأنصاف الثلاثة، وتضيف إليها عينين متوقدين كأنهما شرارتان، وتجعل في وعاء مخه قطعة من قنبلة ذرية، ثم ألبسه عمامة مشوشة وجبة ونظارة، وستستقيم لك صورته الرائعة الفاتنة.

صاحبنا رجل علم ودين وأدب. خطيب بارع وواعظ ناجح، ولكنه متمرد بعض الشيء عن الأوضاع البالية والتقاليد المعكوسة، يميل إلى التجديد ولكن في حدود المنطق والعقل، متواضع سلس الانقياد، يسيل

رقة إذا ما ارتدى ثوب الرضا، أما إذا لبس أثواب السخط والثورة فإن شرر الجحيم يتطاير من عينيه، وقذائف سقر تتناثر من فيه، وهو ساخط على الأوضاع متبرم بالحياة، ولكن تبرمه في غير شكوى، لا يعيش لنفسه، ولا يقيم لمصالحه المادية وزنا، بل تجده يخجل ويندى جبينه كالطفل المذنب، إذا ما حادثته فيما يخصه من المصالح المادية، صبور عنيد، لايقيم للمادة وزنا حتى ولو كان أشد الحاجة إليها، وهو لا يصلح للإمارة ولا للتجارة، أما الأولى فذلك لأنه عاطفي، سريع الاندفاع، حسن الظن بالبشرية، رغم كثرة تجاربه، فإذا رأى اعوجاجا في زميل أو لاحظ ما يسيء ظنه بعميل ألقي بالإمارة ومقاليدها في الجحيم، بعد ما يكيل لها كيلا وافيا من غضبه وثورته وشتائمه المحفوظة منها والمبتكرة، والإمارة كما لا يخفاكم تتطلب أعصاب الانكليز، ودعاية الأمريكان، وأنفة الشيخ خير الدين، وأما التجارة فإنه لا يصلح لها أيضا لعدة أمور: أولها لأنه لا يحب المال ولا المال يحبه، كثير الثقة بالعباد، ثم إن فلسفته في الحياة تتطلب "أنفق ما في اليد ولا تفكر في الغد"، والتجارة تتطلب من أصحابها حرص اليهود، وحذر الروس وحسابات بوشمال.

وعلى هذا فإن شيخنا الياجوري محكوم عليه بالرسوب في هذين الميدانين ونتيجة اختياره في هذه المواد: واحد من عشرة، وليضحك انتقاما منه تلاميذه الذين كثيرا ما أتحفهم بهذه النتيجة في اخباراتهم، ولكن صاحبنا جندي موفق يملك جميع مواهب الجندي، وأسلحته: الإيمان القوي بعقيدته وبمبادئه في التضحية، والتفاني في سبيل هذه المبادئ والعقائد والجرأة والإقدام دون تردد أو وجل، والصبر والتجلد دون تبرم أوتشك.

وإذا عرفت أن وعاء دماغه عبارة عن كشكول، جمع ما هب ودب من علوم الدنيا والدين، تبين لك لم اخترت له مركز جندي ممتاز في الحركة.

هذا هو الأستاذ الياجوري، وقد وزنته في ميزان الورق الموضوع على مكتبي، وقد حاولت وزنه في الميزان السابق، فلم يحرك عقربه، لأنه أعد للحجم الثقيل، بارك الله في شحم ولحم أصحابه. وصاحبنا من وزن الريشة، فيه رطل من اللحم ورطلان من العظم، ومثلهما من اللباس.

البصائر عدد 266

من السلسلة (2).

هذه أمثلة من وزن حوحو لأصدقائه ومعارفه الذين وضعهم في ميزانه الدقيق المحكم، ومجموعهم ستة أو سبعة فقط لسوء الحظ، وليته استمر فوزن البقية الباقية، وليت الأمر توقف. وقد علمت أنه كان يعرض الصورة التي يرسمها لأحدهم على صاحبها قبل أن ينشرها ويعرضها على الناس، حتى يحصل على موافقته.

وقد تلقى حوحو رسائل تشجيع وتحبيذ لعمله هذا من القراء، ومنهم من طلب منه استعمال المشرط بدلا من الميزان، وبعضهم فزع وخاف أن يوضع في الميزان.

11. من غريل الناس نخلوه "حوحو أيضا في الميزان" داعبه أحد أصدقائه "الحفناوي هالي" بأبيات جمعت فيه كل المتناقضات المتضادات، ولكن شتان بين هذا الميزان وذلك الميزان، يبدؤها بقوله:

شائق مائق ضحوك غضوب ❖ مشرق مظلم، عبوس طروب
نابه خامل، عليم جهول ❖ عادل جائر، كسول دؤوب
إلى أن يقول:
يزن الناس هكذا "بصروف" ❖ كصروف الزمان، وهي خطوب
أن وزن "الحكيم" ليس بمطبوع ❖ كوزن "الحمار"، و هو غريب
فأعديا "أخا الحمار" اعتبارا ❖ فلعل الميزان فيه ثقوب
وزن الناس مقسطا أو فسم ❖ الوزن "كيلا" إذن وأنت أديب

- **من آراء أدبائنا في حوحو وأدبه وآثاره:**

1. في مميزات فنه يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله:

- لفت نظري في أدب حوحو ظاهرتان هامتان:

الأولى السخرية والثانية براعة الحوار فالسخرية و ظاهرة شائعة في جميع آثاره حتى الجاد منها، يلتجئ إليها للتعبير عن خلجات نفسه وآرائه وشؤون الحياة. وليس غريبا أن يعمد حوحو إلى هذا الأسلوب من الكتابة في مجتمع كالمجتمع الجزائري، تسوده تقاليد معينة في المرأة، ورجال الدين واستخدام وسائل الحضارة، وتحكمه سياسة معينة قائمة على العنف والإرهاب في كل شيء، وعندي أن حوحو لو امتهن الرسم لكان أبرع الرسامين في فن "الكاريكاتير" بالذات، والرسم كما يقدم إليك شخصية حية لها أبعادها ومفهومها، قد يقدم إليك فكرة أو نظرية أوموضوعا أو منظرا، وكلها رسوم لها دلالتها في التأثير والتشويق أوالدعابة والنقد...

أما ظاهرة الحوار فهي كذلك من أبرز ما امتازت به أعماله الأدبية، وقد برع فيه لدرجة كبيرة، لم أعرف أديبا جزائريا وصل إلى مستواه. استخدم حوحو الحوار في القصة وفي المسرحية وفي الموضوعات المختلفة. وكان حواره يمتاز بالسرعة والجدة والنكتة مما جعله خفيفا على الأذن قريبا إلى القلب. وقد ساعدته شخصية الحمار الذي أجرى على لسانه مناقشات كثيرة للمشاكل الاجتماعية والوطنية، ساعدت هذه الشخصية على طرافة الحوار وخفته.

وهناك عدة ظواهر أخرى تسود أدب حوحو، ولكن أغلبها ثانوي إذا قيس بالظاهرتين السابقتين، ولن نكون متحاملين إذ قلنا: إن باع حوحو في اللغة العربية لم يكن طويلا، ولكن ثقافته الفرنسية واطلاعه الواسع، وروحه المرهفة وإحساسه بمسؤولية الأديب الملتزم، كل ذلك جعله شخصية متميزة في الأدب الجزائري الحديث.

(دراسات في الأدب الجزائري الحديث) ص9
من منشورات دار الآداب بيروت سنة 1966 م.

2. يقول الأستاذ أحمد بن ذياب في حوحو وأدبه:

يعتبر حوحو إلى حد بعيد أول كاتب جزائري نزل إلى الشعب، يبحث عنه ليأخذ بيده إلى النور بطرائق مختلفة: مسرحية، قصصية، مقالات اجتماعية تثقيفية، وأخرى سياسية، وكانت وسيلته الناجحة هي لغة الحوار. وحوار حوحو في جملته لطيف رشيق قصير العبارة. وهو بهذه الطريقة أمكن أن يجتلب إليه الكثير من القراء ممن ارتبطت بينه وبينهم صلة متينة...

جريدة (الشعب)

بتاريخ 1. 4. 1974.

3. يقول الأستاذ أحمد منور في مسرحيات حوحو:

يبدو الطابع الأخلاقي واضحا عند حوحو في النهاية التي كان يضعها لمسرحياته، حيث نجد الغلبة في الأخير دائما للخير على الشر، فتتغلب القناعة على الشره، والاستقامة والعفة على الغدر والخيانة وهكذا.

وتتسم مسرحياته التاريخية أيضا بهذا الطابع الأخلاقي بالإضافة إلى الهدف العام من ورائها، الذي يلتقي فيه حوحو مع غيره من كتاب المسرح الفصيح في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثل ما نجد في مسرحية "حنبعل" لتوفيق المدني، و"بلال" لمحمد العيد، و"المولد النبوي" لعبد الرحمان الجيلالي، و"الناشئة المهاجرة" لمحمد الصالح رمضان، ويتمثل هذا الالتقاء في كونهم جميعا يهدفون إلى إحياء التاريخ العربي الإسلامي وحتى ما قبل الإسلام، والاستفادة مما يحتوي عليه من مواقف بطولية وإنسانية، وللوصول إلى هدفه من المسرح، وهو التسلية والتربية الخلقية، كان حوحو يراعي مسألتين حينما يكتب مسرحياته:

"الأولى": مستوى الجمهور، فقد كان يكتب لجمهور يتألف من عامة الناس، ومن تلاميذ المدارس وأوليائهم، ولا يغيب عن أذهاننا أنَّ الأمية في ذلك الوقت كانت متفشية بنسبة كبيرة... ولذلك كان حوحو يراعي السهولة والبساطة في التعبير حين يكتب بالفصحى، كما كان يكتب بلغة مهذبة قريبة من الفصحى حين يكتب بالعامية، حتى يقرب من الهوة التي كانت تفصل بين هذه وتلك.

و"الثانية": هو أنه كان يختار اللغة الفصحى للمسرحيات الدرامية، واللهجة العامية للمسرحيات الكوميدية وأعتقد أن سبب اختياره للعامية في المسرحيات الكوميدية يرجع إلى الدور الأساسي الذي تلعبه العامية في المواقف المضحكة، حيث أن اللهجة العامية تحتوي على تعابير لها نكهتها الخاصة التي تصعب ترجمتها إلى اللغة الفصحى دون أن تفقد دلالتها القوية، وقدرتها على إثارة الضحك، ويلتقي حوحو في هذا مع أغلب كتاب المسرحية الفكاهية الذين يفضلون استعمال العامية في الحوار، وذلك منذ أرستوفان في العهد اليوناني.

جريدة (الشعب) عدد 5463

بتاريخ 24. 05. 1981

4. الدكتور الركيبي يستعرض أمثلة وفقرات من مسرحيات حوحو ويعقب عليها بما يرى، فيقول:

يمكن أن نلتمس ذلك "يعني الموضوعات ذات الصلة بالمجتمع وما يتصل به" فيما كتبه حوحو في مسرحياته القصيرة التي تتكون من فصل أو أكثر، أو تلك التي اقتبسها من المسرحيات الفرنسية، ومثلت على خشبة المسارح الجزائرية في الأربعينات وبداية الخمسينات، وكان لها أثرها الواضح في الحياة الأدبية والاجتماعية على السواء.

ففي إحدى هذه المسرحيات القصيرة يعالج موضوعا اجتماعيا يعرض فيه إلى الزواج، وكيف أن ابنة أحد الشخصيات المرموقة في المجتمع تتزوج من أديب فقير، ويجرى الحوار حول هذا الموضوع، تظهر فيه روح الفكاهة والسخرية المبكرة لدى حوحو الذي طالما سخر من أصحاب الجاه والمال، ونكت على وضع الأدباء ونظرة الناس إليهم، ويظهر هذا جليا في مسرحية"الوهم" كذلك يظهر هذا الأسلوب الفكه الساخر في مسرحية "أدباء المظهر" التي يتحدى فيها أولئك الذين يتشبهون بالأدباء في المظهر دون أن تكون لهم مواهبهم ومواقفهم، ولكنه يعالج فيها بعمق ما يعانيه الأديب الأصيل في بيئته التي لا تقدره ولا تقبل على إنتاجه، لأنها لاتقدر الأدب، وإنما تقدر المال والجاه والسطوة.

وتتفتق حيلة "الأستاذ خليل" الأديب المعروف فينشر إعلانا في الصحف يتعهد فيه لمن يدرس عليه بأنه قادر على أن يجعل هذا أديبا في ساعات قليلة، فيقصده الشباب ويجري بينه وبينهم حوار حول الأدب، وينصحهم بأن يحفظوا أسماء بعض الشعراء والكتاب ويصبحون أدباء، ويتسلم

مرتبة منهم، وبذلك وجد وسيلة للرزق بعد أن عجز أن يقنع الناس بما في كتبه من غذاء روحي وثقافي. "ويعرض هذه الصورة لدرس الأستاذ خليل لطلابه في الأدب":

"خليل: ينقسم الأدب إلى قسمين: القسم الأول: وهو قسم المظهر - فينبغي اذن على الشخص الذي يريد أن يمثل أديب اليوم أن يرتدي ملابس أنيقة، وأن يستعمل نظارة، ويحمل قلم حبر ودفترا صغيرا"- " أما المرحلة الثانية فهي أن يحفظ الشباب أسماء بعض الأدباء والشعراء المتقدمين، وأدباء القرن الرابع عشر الهجري، وأسماء بعض مؤلفاتهم". ويجري الحوار بهذا الأسلوب الفكاهي في المسرحية سواء ما كان بين الأستاذ الأديب وبين أحد تلاميذه وصديقه، أو بين طلاب الأدب الذين يبحثون عن الشهرة بأي ثمن ويسعون إلى المجد الأدبي بلا جهد أوثقافة.

(تطور النشر الجزائري الحديث)
ص 229 سنة 1984م

5. آراء مقتضبة للدكتور مرتاض بعد دراسته لقصة "فتاة أحلامي" لحوحو.

...لم يكد حوحو يكتب الجملة الأولى في القسم الثاني من قصته، حتى اجتذبنا إليه فكأنما شدنا بالأمراس، وربطنا إلى القصة بأمتن الحبال، فنحن لا نستطيع أن نعزف عنها إلا بعد أن نأتي على قراءتها آنيا..وأحمد رضا حوحو في التصوير النفسي براعة فذة، ولعل أكبر عامل جعله يوفق في هذا العنصر الهام- الذي بقدر ما تعلو نسبته في الكتابات القصصية، بقدر ما تدنو هذه الكتابات من التوفيق، وتتحلى بالقبول- وهو عنصر السخرية، والسخرية من أخصب العناصر التي تعلى من قيمة العمل الأدبي، وترقى بأسلوب الكاتب القصصي إلى ذروة الكمال...

أما اللغة التي اصطنعها حوحو فقد كانت صالحة للفن القصصي لسهولتها وعذوبة مخارجها، ولكنها كانت رقيقة جدا حتى إن حوحو لم يسلم من كثير من الزلات اللغوية، مما يدل على أنه لم يكن يعني بلغته... وكان يأخذ "ما كان في سوق العصر" على حد تعبير الابراهيمي. "ثم يعرض أمثلة من سقطاته..."

أحمد رضا حوحو كاتب قصصي ما في ذلك شك، وهو إلى أن يكون كذلك، أولى له أن يكون أي شيء آخر، كأن يكون ناقدا أومصلحا مثلا، فإن طبيعته المرحة، ونفسه الثائرة كانتا خليقتين بأن تجعلا منه كاتبا قصصيا غنيا من الطبقة الأول، كان في أسلوبه خفة لاتعدم ضعفا ووهنا، وفي لغته عذوبة لا تعدم فقرا وارتباكا بين حين وحين، على أن اللغة لم تستقم إلا لقلة قليلة من الناس.

وأكاد أجزم بأن حوحو لو لم يسفح دمه الطاهر الفرنسيون، لأضحى كاتب القصة القصيرة الأول في الجزائر، فلا علينا أن نقرر إذن، ونحن مطمئنون، إلى أن هذا الكاتب الشهيد يجب أن يعد رائدا للأقصوصة في الجزائر بلا منازع...

فتبا ثم تبا لتلك اليد المجرمة القذرة التي سفكت دمه، فحرمت الأدب العربي المعاصر في الجزائر، أحد أساطينة الأقوياء، ورجالاته النبغاء، وأحد الذين كان ينبغي أن يكون لهم في هذا الأدب شأن أي شأن[1].

---

1. كتاب "نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر" صفحات"169 إلى175" طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر" بدون تاريخ".

6. الأستاذ الشيخ حمزة بوكوشة يعطي رأيه في كتاب "صاحبة الوحي وقصص أخرى" لحوحو:

تسع من القصص الطريفة الوجيزة للأستاذ أحمد رضا حوحو طبعها بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة، والأستاذ حوحو كاتب قصصي، ونحن في حاجة إلى هذا النوع من الكتابة والكتاب، إذ كتاب القصة عندنا أقل من القليل، تلوت تلك القصص قصة قصة، فأعجبت ببعضها غاية الإعجاب، وأحسست كأني أعيش مع أصحابها أو أنا أحد أبطالها، ومع هذا لا أشارك الأستاذ حوحو في حكمه على قصصه، فهو قدم مثلا قصة "صاحبة الوحي" على غيرها وجعلها كالعنوان لمجموعة القصص وما "صاحبة الوحي" بالنسبة لقصة "أدباء المظهر" أو لقصة "ثري الحرب" أو لقصة "خولة" إلا في الدرجة الثانية.

وشفيع الأستاذ في تقديم صاحبة الوحي- فيما أظن أنها أول ما خطه قلمه بالنسبة لهذه المجموعة وأول ما جاش بفكره، وشفيعي أنا في تأثُّري بتلك القصص الأخرى أنها صادفت هوًى في فؤادي لأني شاهدت صورا منها في واقع الحياة.

فقصة "ثري الحرب" أو قصة الأغنياء حيث هم، تتكرر أمام أنظارنا صباح مساء فإذا كان سي شعبان بطل قصة ثري الحرب، اشترى بمبلغ عظيم مقعدا حقيرا في مجلس نيابي، واحتل مقاعد عديدة في مختلف المجالس والجمعيات، وهو يبذل بسخاء ليمكّن مركزه الجديد، فقد رأيت من الأثرياء من يضع بعض الكتب العلمية بمنزله، ويظن أن العلم بالحديث هو الاحراز على نسخة من صحيح البخاري، والعلم بالتفسير

هو الإحراز على تفسير من تفاسير القرآن...

والفرق بين ثري الحرب وغيره، وبعبارة أشمل بين من جاءته الثروة فلتة أو غلطة حيث لم يسع لها سعيها، وبين من ولد فيها ونشأ، أوتعب في سبيل الحصول عليها:

أن الأول جشع يريد إرواء غرائزه في أقرب وقت ولو أدى ذلك إلى بذل ما بيده من المال، أما الثاني فيفرض نفسه ضريبة على كل شيء ولا يبذل في سبيل ذلك شيئا، بل يجر لها من المنافع أشياء، والحمقى من الناس يخدمون ركاب الأغنياء ويفسحون لهم المجال رغبة ورهبة أو طمعا وتملقا ولا يجنون من ذلك فتيلا.

وغير عسير على أصحاب الثراء أن يكونوا نوابا بالمجالس أو رؤساء للجمعيات، وعسير عليهم أن يكونوا علماء أو أدباء، وإن حاول بعض العلماء أو الأدباء وصفهم بذلك تملقا، وهو جريمة كبرى، ولا جريمة أكبر من نسبة الرجل إلى غير مواليه.

وإذا كانت قصة "ثري الحرب" رائعة فقصة "أدباء المظهر" لا تقل عنها روعة وهي تبين لنا ما وصلت إليه حالة الأدب وحالة الأديب، وماذا يلاقي من إعراض وانصراف الناس عن الأدب الخالص إلى الأدب الزائف، وضعف همم الطلاب، حيث يقنعون بمعرفة شوقي وطه حسين والعقاد والمفاضلة بينهم أو بين غيرهم من الكتاب ويظنون أن ذلك يرفعهم إلى مستوى الأدباء، صاغ ذلك كله الأستاذ حوحو في "تمثيلية" أشخاصها ستة، وهي تحتوي على منظرين، صالحة لأن يمثلها تلاميذ المدارس الابتدائية عندنا.

أما القصة التي ختم بها قصصه فهي قصة "خولة" التي أكرهها أبوها على الزواج بمن لا تحب، ففرت من بيت الزوج قبل البناء، وإكراه البنت على الزواج وجبرها من أمراضنا الاجتماعية التي عز دواؤها، وهو لايساوق المودة والرحمة التي تنشأ عن الزواج.

ثم ختم الأستاذ حوحو قصة "خولة" بفرارها من بيت الزوج، وهذه عاقبة سوء للآباء الذين يخاطرون ويغامرون ببناتهم، وعاقبة الأزواج أسوأ من ذلك، فالمرأة المكرهة أن لم تستطع الفرار بجسدها فأنها تفر بقلبها.

وإذا رجعنا إلى قصة "صاحبة الوحي" وهي القصة الأولى من المجموعة، فإنا نجدها بالنظر إلى موضوعها هزيلة إذ لا جدوى للقراء من قراءة قصة امرأة كانت مصدر إلهام شاعر من الشعراء، وإذا نظرنا إليها من الناحية الفنية فإن نجدها رص ألفاظ إلى بعضها، مع تقدير لما فيها من أوصاف بليغة، وطلاوة مطربة.

وليعذرني الأستاذ حوحو في هذا الحكم إذ ربما كان في نظره قاسيا، هذا مع إعجابي بأسلوبه الممتع بصفة عامة، وهو أسلوب سهل في متناول القراء لا يكلفهم عنتا ولا عناء، وقد لا يروق هذا الأسلوب لمن يتعثرون في أذيال أساليب القرون الأولى، فتلهيهم أحيانا زخرفة الألفاظ عن المعاني، وما جعلت الألفاظ إلا قوالب للمعاني.

- **المؤلفات التي تناولته:**

1. دراسات في الأدب الجزائري الحديث: د. أبو القاسم سعد الله دار الآداب بيروت سنة1966
2. القصة القصيرة في الأدب الجزائر. د. عبد الله الركيبي دار الكتاب العربي سنة1969
3. نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر د. عبد المالك مرتاض الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1971
4. تطور النثر الجزائري الحديث. د. عبد الله الركيبي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1976.
5. قراءات في القصة الجزائرية .أ- أحمد منور الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة1981
6. الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر د. عبد المالك مرتاض ديوان المطبوعات الجامعية 1982
7. قاص من الجزائر."رضا حوحو" الآنسة لوريت بحث أعدته بالفرنسية لشهادة التبريز بباريس.
8. حول الكتاب مع حمار الحكيم: أ. محمد الطاهر فضلاء
9. سبيل الخلود: أ. عبد المجيد الشافعي
10. رضا حوحو منشورات جمعية الاختلاف.

ملاحظة:

وهناك بحوث ودراسات أعدها ويعدها طلبة الدراسات العليا بالجامعة الجزائرية حول جوانب من أدب حوحو وكثير من الكتب والصحف الأجنبية التي تناولت الحركات الأدبية والثقافية المعاصرة بالجزائر لايمكن حصرها تعرضت لحوحو.

• الاهتمام بحوحو:

اهتمام مصالحنا ومؤسساتنا به:

اهتمت به في البداية "وزارة التربية الوطنية" في مناهج تعليمها، وتسمية بعض مؤسساتها.

كما اهتمت به "وزارة الداخلية" فأطلقت اسمه على عدة أماكن: ساحات، شوارع، أسواق.. الخ.

ثم غيرهما من الوزرات في عدة قطاعات، واهتم به "اتحاد الكتاب الجزائريين" فخصه بندوات ومحاضرات وما يزال يهتم به في المناسبات والذكريات.

واهتمت به "وسائل الاعلام" من صحافة وإذاعة وتلفزة، وكتب الكتاب عنه ما شاءوا في الصحف والمجلات الوطنية وغير الوطنية، وتكلم المتكلمون عنه في الندوات واللقاءات وخاصة في الأسابيع الثقافية التي تقيمها البلديات والولايات.

ويقام الآن "مهرجان القصة" باسم أحمد رضا حوحو في مدينة "سعيدة" سنويا، كما يقام "مهرجان الشعر" باسم محمد العيد آل خليفة من سنوات كل عام في بلدة "بسكرة"، ويتبارى الخطباء والشعراء في الإشادة بهما. ويتبارز الباحثون والدارسون في التنقيب عن آثارهما وتحليلها أوتقييمها، ثم تذهب هذه الجهود سدى فلا تجمع ولا تطبع.

وليت "اتحاد الكتاب" الذي يعتبر المشرف الأدبي عليها، والمشارك الأكبر في إقامتها، يسعى لجمع ذلك كله وتقييمه وتصنيفه، ثم طبعه ونشره في مجلته أو في نشرات خاصة.

ولعل "المؤسسة الوطنية للكتاب" جادة الآن في طبع "الآثار الكاملة لحوحو" ولغيره من الكتاب والشعراء، وفقها الله وأعانها وسدد خطاها في اختيار من يصلح لكل ميدان لتعطي القوس باريها، وتهتم بالجانب العلمي والأدبي والثقافي، كما تهتم بالجوانب الأخرى الفنية والمادية وغيرهما.

الشيخ علي المغربي

(1915- 1999)

الشيخ علي المغربي

• تعريفه:

الشيخ علي المغربي من مواليد سنة1915م "ببلدة "فرفار" بالزاب الغربي لدائرة "بسكرة" حيث نشأ وتربى في كنف والديه وإخوته، حفظ القرآن في كتّاب القرية في سن مبكرة قبل البلوغ وأخذ مبادئ العربية والإسلام على بعض شيوخ البلدة. ثم انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس للتزود بالعلوم والمعارف في ذلك المعلم الثقافي الذي كان منارة إشعاع في المغرب العربي قبل أن تجني عليه السياسة الحزبية البورقيبية الضيقة التي أطفأت نوره. وتخرج فيه "بشهادة التطويع" التي عرفت من بعد "بشهادة التحصيل" كان ذلك سنة 1935، وكان الأول في الرتبة الأولى من الناجحين الجزائريين والتونسيين.

كان أصغرهم سنا وأحسنهم تحصيلا، وكان عدد الناجحين ذلك العام من الجزائريين "14" طالبا منهم: عبد المجيد حيرش والمهدي البوعبدلي، وغيرهما في مختلف الرتب والدرجات كما رأيت في مجلة الشهاب ج0م 11 ص 331.

في هذه السنة التي تخرج فيها حضر الاجتماع السنوي العام لجمعية العلماء في نادي الترقي وألقى فيه خطبة نشرت في سجل مؤتمر جمعية العلماء لسنة 1935م مع صورته الشمسية، كما نشرت خطب وقصائد كل من شارك في ذلك المؤتمر مع صورهم، وانضم الشيخ علي المغربي كعضو عامل تلك السنة إلى جمعية العلماء.

وشارك في أعمالها التعليمية والوعظية وغيرها، ومن ذلك الحين عرف بانتمائه الصريح الواضح لجمعية العلماء وبقي وفيا لها طول حياته، وبعد وفاة رئيسها الأول ابن باديس، وبعد ويلات الحرب العالمية الثانية، وبعد إطلاق سراح الإبراهيمي من المنفى وانتخابه رئيسا للجمعية، عيَّن الشيخ علي المغربي عضوا في المجلس الإداري للجمعية، ولما جددت الجمعية في الاستقلال كان نائبا للرئيس فيها حتى وفاته رحمه الله.

وفي الاستقلال باشر التعليم الرسمي الذي تشرف عليه وزارة التربية والوطنية كأستاذ للأدب العربي في ثانوية الأمير عبد القادر بالعاصمة إلى أن أحيل على المعاش، وأثناء ذلك كان يلقي دروس الوعظ والإرشاد في مساجد العاصمة متطوعا، وعين في المجلس الإسلامي الأعلى من يوم تأسيسه وشارك في أعماله ونشاطاته بالمكتب الدائم له وفي لجنته للفتوى، وكذلك في لجنة الفتوى لوزارة الشؤون الدينية. ويمثل الجزائر في "مجمع الفقه الإسلامي" الذي يعقد سنويا في المملكة السعودية يحضره كل سنة ويشارك في أعماله، كما يشارك الشيخ أحمد حماني في "الرابطة الإسلامية" بالسعودية أيضا باسم الجزائر.

ومن المساجد التي لازم العمل فيها كإمام متطوع وواعظ مرشد مسجد ابن باديس بميدان بور سعيد في الجنينة، الذي كان كنيسة وحولوه إلى مسجد للجمعة والصلوات الخمس، وكان يقيم فيه الشيخ علي الحفلات الشيقة في المواسم والأعياد والمناسبات، كان خلية نحل دائمة النشاط بفضل حركية الشيخ علي وحيويته إلى أن لقي الله راضيا مرضيا إن شاء الله.

هذا هو الشيخ علي المغربي عموما كما عرفه الخاص والعام: عالما مصلحا، متفتحا، وإماما قيما، وفقيها ورعا، ومفتيا واعيا، ومدرسا بارعا، وأستاذا ومعلما قبل ذلك.

وهنا لكم جوانب أخرى في حياته شارك فيها بفعالية ونجاح، ولايعرفها فيه كثير من الناس، سأذكرها لكم باختصار شديد مفيد إن شاء الله غير مخل بحول الله.

• الاشتغال بالفلاحة والتجارة:

في أوّل عهده بالحياة العامّة بعد التخرّج من الزيتونة اشتغل بالفلاحة في "فرفار" مع إخوته الذين كانوا طوع إرادته كبيرهم وصغيرهم، لما لمسوا فيه من الحكمة والسداد وحسن التفكير والتدبير، فتعاونوا على تنمية الفلاحة التي ورثوها من أبيهم ووسعوها فيما يعرف هنالك بـ "البدع": الأرض البور التي كانت لاتصلح لشيء فاستصلحوها ومهّدوها وفجّروا فيها العيون والآبار الأرتوازية للسقي، وكونوا فيها حدائق ذات بهجة للنخيل والخضار والأشجار المثمرة، فربت وزهت وأنبتت من كل زوج بهيج. فهي الآن أرض فلاحية "ابتدعت" بعد أن كانت بورا وبوارا، أصبحت خضارا وأشجارا وثمارا، وهكذا نجحوا في هذا الميدان بفضل تآزرهم وتعاونهم، وكانوا إخوة صالحين ناجحين.

وفتحوا دكانا للتجارة هنالك في "فرفار" حسبما تتطلبه بلدتهم وكلفوا به أخاهم الأوسط "عبد القادر" ثمّ اشتروا مسكنا ومتجرا في عاصمة الزيبان بسكرة، وكلفوا أخاهم الأكبر"حسين" ليسكن فيه ويدير ذلك المتجر في قلب سوق بسكرة، وهذان الأخوان "حسين

وعبد القادر" يشرفان معا على تسيير الأمور الفلاحية والتجارية هنالك في الجنوب.

وفي العاصمة الجزائرية فتحوا محلا للتجارة يشتغل فيه أخوهم الأصغر"محمد" تحت إشراف "الشيخ علي" فهذان هنا يتعاونان على الأمور التجارية في الشمال مثل الأخوين الآخرين هنالك في الجنوب، والجميع شركاء متعاونون في الأمور كلها بتدبير وتفكير الشيخ علي المغربي، تماما كما كان الشيخ محمد خير الدين مع إخوته، وهم أيضا إخوة صالحون متعاونون ناجحون، وكلهم أقارب متقاربون في كل شيء فأم خير الدين من آل المغربي.

يقول الشيخ ابن باديس، رئيس جمعية العلماء في التعريف بالشيخ خير الدين، كما عرّف بأعضاء المجلس الإداري للجمعية سنة 1938: "خير الدين مراقب الجمعية: هو عميد الحركة الإصلاحية في بسكرة وضواحيها، وهو من بين إخوانه ممتاز بحسن التدبير التجاري والفلاحي. الذي قلّ أن لا يعود عليه بالأرباح، لكنه كثيرا ما يترك ذلك كله في سبيل خدمة الجمعية بذلك التدبير". وهذا التعريف ينطبق تماما على أخينا الشيخ علي.

● اشتغاله بالأدب وقرض الشعر:

اشتهر الشيخ علي عند من قرأوا معه وعند معارفه الذين لازموه من بعد أنه يتمتع بحافظة جيدة وبذاكرة قوية، يزين كل ذلك ذكاء وقاد وتذوق للأدب، مع إتقان للعلوم التي درسها، ومعروف عنه أنه حفظ القرآن في صباه، وحفظ الكثير من متون: الفقه والتوحيد والنحو والصرف وما إلى ذلك مما كان يدرس في المعاهد والمساجد والزوايا: كما يحفظ الكثير من عيون الشعر العربي في مختلف عصوره واطلع على كثير من دواوينه القديمة والحديثة، ويعرف من نوادر الأدب وطرائفه مالا يعرفه كثير من زملائه، يرويها وكأنه اطلع عليها لحينه فلا يتلعثم ولا يتجمجم، ويكاد يكون راوية فيه دون تبجح أو تظاهر.

فلا تعجبوا إذا أخبرتكم أنه ينظم الشعر في المناسبات، ولكن عيب الشيخ علي أنه لا ينشر شعره ولا نثره، ولا يتظاهر بهما، ولذلك لم يعرف عنه أنه كاتب موهوب، أو شاعر محبوب.

وبهذه المناسبة يجدر بي أن أعرض عليكم نموذجا من آخر ما نضم وكتب قبل وفاته بثلاثة سنوات ونيف لمّا أهديته "ديوان شعر صغير" وأشدت فيه برفيق لي في الرحلة إلى "فرصونيا" الأديب الشاعر الفكه اللطيف "الأستاذ الشيخ الحفناوي هالي" خال الدكتور سعد الله، وهو من زملاء الشيخ علي في الدراسة بالزيتونة، فكتب لي رسالة ضمنها قطعة شعرية إليكم الكلمة النثرية والقطعة الشعرية، وهما من آخر ما خطه، بعدهما نماذج أخرى إن شئتم المزيد وكان في الوقت متسع:

• علماؤنا والشعر:

هذا ولتعلموا أن علماءنا الأئمة الدعاة الهداة كابن باديس والإبراهيمي والعقبي وحتى الشيخ الخضر حسين وخاله الشيخ المكي بن عزوز علال الفاسي وعبد الله كنون إلى المشائخ: محمد العيد، أحمد سحنون، نعيم النعيمي، ابن عبد الرحمن الديسي، البوعوني وغيرهم ممن كانوا أئمة فقه وهداية إلى الله ورسوله، كانوا كذلك أئمة في الأدب العربي وفي الشعر بالخصوص لا يرون في ذلك بأسا أن يكون الشعر أداة مقاومة، وسلاح دعوة، ووسيلة تبليغ، يستعملونه في نضالهم الديني والقومي، وفي جهادهم السياسي والاجتماعي وغير ذلك من أغراضهم النبيلة، فهم يجيلون أقلامهم ويطلقون ألسنتهم في الشعر مثلما يستعملونها في النثر. والمهم أن شعرهم يأتي كشعر الشعراء الحقيقيين بليغا قويا يأسر القلوب ويأخذ الأسماع بجرسه وحسن سبكه، لا كشعر الفقهاء والعلماء الجاف البارد لا روح فيه، الذي هو إلى النظم أقرب وأنسب منه إلى الشعر، وقد قيل حقا وصدقا: إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس جديرا أن يقال له شعر.

وهل أحتاج أن أضرب لكم مثلا على ذلك؟ هذا أستاذنا الإمام العلامة الشيخ ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين وقائد ورائد أئمتنا المصلحين يقول في نشيده الشائع الذائع:

شعب الجزائر مسلم ❖ وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ❖ أوقال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له ❖ رام المحال من الطلب

إلى أن يقول:

يا نشء أنـــت رجـاؤنـــا ❖ وبك الصباح قد اقـــتــرب

خذ للحيـــاة سـلاحــها ❖ وخض الخطوب و لا تهـــب

وارفع منـــار العــــدل ❖ والإحسان واصدم من غصب

واقلع جذور ا لخائنيـــن ❖ فمنهــم كــــل العطــــب

وأذق نفوس الظـالميـــن ❖ السم يــمــزج بالــرهــــب

واهزز نفوس الجامديـــن ❖ فــر بمــا حيـــي الخـشــــب

..الخ.

ويقول في نشيد آخر له:

اشــهـــدي يا ســمـــا ❖ واكتـــبن يا وجـود

أننـا للـــحـــــمـــــى ❖ سنكون الجـــنـــود

فنـــز يـــح الـــبـــلا ❖ ونفـــك القـــيـــود

و نـــذيـــق الـــــردى ❖ كل عـات كـنـود

فيـــرى جيــلـــنـــا ❖ ذكريات الجـــدود

و يـــرى قـــو مـــنـــا ❖ خافــقات البنـــود

ويـــرى نجـمـــنـــا ❖ للعـــلا في صعـــود

فتـــضـــم اسـمـنــــا ❖ صفحـات الخلـــود

هــكـــذا هــــكـــذا ❖ هـكـــذا سنعـــود

فاشهـــدي يـــا ســمـا ❖ واكـتـبـن يا وجــود

أنـــنـــا لـلـــعـــــلا ❖ أنـنـا لـلـــخـلـــود

أكتفي بهذا عن كثير غيره لابن باديس وغيره لأبين أن علماءنا وأئمتنا لا يرون في الشعر غضاضة أو أنه يحط من قيمتهم بخلاف أئمة الإصلاح وزعمائه القياديين في المشرق كالأفغاني والكواكبي ومحمد عبده ورشيد رضا وسعد زغلول ومصطفى كامل وأحمد عرابي الذين لم يستعملوا الشعر سلاحا في نضالهم وجهادهم كما استعمله قادتنا وأئمتنا في عهد الأمير عبد القادر وأنصاره ومجاهديه، إلى عهد ابن باديس وأعضاده ومريديه.

نعم، هنالك في المشرق شعراء كبار لا يشق لهم غبار، تمحضوا للشعر ونبغوا فيه مثل شوقي والبارودي وحافظ في مصر، ومثل الزهاوي والرصافي والجواهري في العراق، وغيرهم كثير هنالك، ولكن هؤلاء شعراء وليسوا أئمة ولا فقهاء أو دعاة وعظ وإرشاد أو أئمة مساجد تأتم بهم العامة وتقتدي، إنما هم شعراء ككل الشعراء على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم.

رسالة

حمدا وصلاة وسلاما:

الأخ الودود صديق العمر الأستاذ محمد الصالح رمضان أمده الله بالصحة والسلامة آمين.

أخي الكريم قدمت من سفري منذ يومين فوجدت فيما وجدت في بريدي ظرفا لطيفا حوى تحفة من تحفك الغالية فتصفحت أوراقه وقرأته من أوله إلى آخره ولفت انتباهي تلك الكلمة اللطيفة القيمة التي أهديت لي بها الكتاب فحركت ما في نفسي من أحاسيس ورجعت بي إلى أيام خلت كنا كما قيل: وكنا كندماي جديمة حقبة من الدهر، وذكرتني بالأخ الراحل هالي وما أدريك ما هالي فشكرا لك شكرا.

أخي الكريم حين قرأت "من وحي الرحلة" أوحت إلي بهاته الأبيات التي هي من بقايا تلك اللحظات التي كنا نقضيها ساعة مرحنا بعد جدنا وكدنا، فحيا الله تلك الأيام عما فيها من آلام وآمال وقد تحققت بعض تلك الآمال فعسى الله أن يمدنا بلطفه الخفي ويمنحنا العون على أداء ما يقربنا إليه إنه سميع الدعاء.

أخوكم الوفي علي المغربي

الجزائر يوم12. 03. 1417هـ 28. 07. 1996م

قصيدة:

على وقع" من وحي الرحلة"

نفحات قلب دائـــم الخفــقـــان ❖ برزت مسطـرة بحســن بيـــان
أبدت كوا من للـــورى مخبـــوءة ❖ يا حسن لفظ حسن مـعـــان
يا رحلـــة كشفـــية ميمـــونـــة ❖ كشفت لواعج معـرم هيفـان
فتحـــت نوافذ للقلـــوب عشيـــة ❖ والقلب يهتف للنـــدا الهتـــان
وسقت قلوبا كالحات من الهوى ❖ فنمت براعم روضها الفينـــان
فالورد والنسريـــن من أزهـارهـــا ❖ وظبا المخيم صرن طوعا بنـان
فتنعَّم الشيخـــان في عرصاتـــها ❖ "وتمتعا.." بالحـــور والغلمـــان
"هالي" المنعم في المجالس تحفـــة ❖ "رمضان" ذو الأفكار والأوزان

الجزائر يوم 12. 03. 1417هـ

28. 07. 1996م

أخوكم علي المغربي

الفهرس

كتب أدبية أخرى للمؤلف

❖ المطبوع منها:

- ألحان الفتوة "شعر".
- الخنساء "مسرحية".
- الناشئة المهاجرة "تمثيلية".
- مغامرات كليب "قصة".
- سوانح وارتسامات عابر سبيل.
- المولد النبوي الشريف "مسرحية".

❖ المخطوط:

- الفصيح الدارج في عاميتنا.
- من عيون بلادي.
- شظايا وشذور.